إسلاميات

«.. يا ابن أخى أنا رجل لا مال لى وقد اشتد الزمان علـى وألحت علينا سنون منكرة ، وليسـت لنـا مادة ولا تجارة .. وخديجة بنت خويلـد تبعث رجالا من قومك .. فيتجرون فى مالها .. فلو جئتها فعرضت نفسـك عليها لأسرعت إليك وفضلتك على غيرك لما بلغها عنك من طهارتك» .

هكذا تحدث أبو طالب إلى ابن أخيه الشاب محمد بن عبد الله فى حوار بينهما عن خديجة : امرأة من قريش ذات شرف ومال . تستأجر الرجال على تجارتها وتبعث بها إلى الشام .

وقبـل أن تعلم خديجة بهذا الحوار كانت تعلم الكثير عن صدق محمد وأمانته وعفته . لهذا أرسلت هى إليه تدعوه إلى الخروج إلى الشام متاجرا فى مالها .. بأجر أكبر من غيره ، وخادم لها اسمه «ميسرة» .

ولقد كانت خديجة رضى الله عنها أول زوجة لمحمد . تزوجها بعد أن قالت له : «يابن عمى ، إنى قد رغبت فيك لقرابتك وصيتك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك» .

وعندمـا تم الزواج كانت خديجة أكبر من محمد : هى فى الأربعين وهو فى الخامسـة والعشرين . وكانت أغنى من محمد : هى صاحبة مال وهو فقير إلى المال . ومع ذلك فإنه ظل على وفائه لها طيلة حياته . إن خديجة كانت أول امرأة تزوجها محمد ، ولم يتزوج غيرها حتى ماتت . ولقد امتد وفاؤه لها بعد وفاتها ، بحيث إن زواجه بغيرها لم يمح ذكراها من نفسه قط . وفاء دفع زوجته عائشة رضى الله عنها إلى إن تغار منها وهى فى قبرها .

● جريدة «أخبار اليوم» : ١٩٦٩/١١/١٥ .

قالت له عائشـــة ذات مرة مشـيرة إلى خديجة : هل كانت إلا عجوزا بدلك الله خيرا منها ؟

ورد عليها رسول الله ، ردا قصيرا مختصرا . قال النبى غاضبا : «لا والله .. ما أبدلنى الله خـيرا منها . آمنت بى إذ كفر الناس ، وواسـتنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء» .

❑❑❑

هذا هو محمد صلى الله عليه وسلم ..

طاهـر فى شـبابه ، صادق فى حديثه ، أمـين فى معاملته ، كريـم فى أخلاقه وفى طباعه . إنه هذا كله ، حتى قبل أن يصبح الشاب رجلا ، والرجل نبيا ، والنبى صاحب رسالة . أفضل رسالة .

❑❑❑

ولد محمد فى مكة يوم الإثنين الموافق ٢٠ من ابريل سنة ٥٧١ ميلادية . ولم يطلق اسم «محمد» على أحد غيره قبل ولادته .. سوى ستة . فاسم «محمد» لم يكن معروفا قبله عند العرب ولا غيرهم .. إلى أن شاع قبل وجوده وميلاده أن نبيا يبعث اسمه محمد ، فسمى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون هو «أحدهم» والله أعلم حيث يجعل رسـالته وهم : محمد بن أحيحة ، ومحمد بن مسـيلمة ، ومحمد بن براء ، ومحمد بن سـفيان ، ومحمد بن حمران ، ومحمد بن خزاعى . ثم إن الله حمى كل من تسمى به أن يدعى النبوة أو يدعيها له أحد ، أو يظهر عليه سـبب يشـكك أحدا فى أمره ، حتى تحققت الشيمتان له صلى الله عليه وسلم لم ينازع فيهما .

ولقد ولد محمد بن عبد الله عن أب توفى قبل ولادته بشهور ، وأم توفيت بعد ولادته بست سـنوات . لقد أصبح الطفل يعيش فى كفالة جده ، عبد المطلب ، إلى أن أصبح فى الثامنة من عمره . ثم تكفل به ، بعد جده ، عمه أبو طالب .. حتى السنوات المبكرة فى شباب محمد .

❑❑❑

كان رسول الله متوسط الطول ، عريض الكتفين ، واسع الصدر ، غزير الشعر ، عظيم الرأس ، مسـتدير الوجه ، أسمر اللون مشرب بحمرة ، واسع الجبين ، كثيف الحاجبين

بينهمـا عرق يدره الغضب . أكحـل العينين ، تام الأذنين ، ضليع الفم ، طويل الأنف ، سهل الخدين ، منفرج الأسنان ، ضخم اللحية ، غليظ الكفين ، أشعر الذراعين والصدر ، بين كتفيه خاتم النبوة . توفاه الله وليس فى رأسـه ولحيته عشـرون شعرة بيضاء . سريع الخطوات . إذا مشى فجسمه يميل إلى الأمام . إذا التفت فبجسمه كله . إذا زار أحدا لايقوم حتى يستأذنه . إذا لقى أحدا يبدأه بالسلام . لم يره أحد قط مادا رجليه بين أصحابه . لم يتنفس فى إناء . لم ينفخ فى طعام أو شراب . إذا صمت فعليه الوقار . إذا تكلم سما .

ورسـول الله لم يكن يتكلم إلا عن ضرورة . إنه متواصل الأحزان دائم التفكير . ليسـت له راحة . لا يتكلم فى غير حاجة . طويل السـكوت . يفتتح الكلام ويختمه بألفاظ سـليمة المخرج ، واضحة النبرات . دمث .. ليس بالمتكبر ولا بالمتصاغر . يعظم النعمة وإن قلت . ولايـذم منها شـيئا ولا يمدحه . إذا تعرض للحـق لم يعرفه أحد . إذا غضب لحق لا يقيم شيئا حتى ينتصر له . لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها . إذا أشار فبكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها . يضرب براحته اليمنى باطن إبهامه اليسـرى . إذا غضب أعرض وأشاح . إذا مزح غض طرفه . قليل الضحك ، كثير الابتسام ، قريب من قلوب جلسائه .

❑❑❑

إن مجلـس رسـول الله مجلس حلم وحياء وصبر وأمانـة . لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تنتهك الحرمات ، ولا ترتكب الزلات . مجلس يتفاضل الناس فيه بالتقوى ، ويؤثرون ذا الحاجة ، ويحفظون الغريب .

ومحمد رسـول الله هو – فى هذا كله – دائم البشـر ، سـهل الخلق ، لين الجانب . إنه ليس فظا ولا غليظا ولا عيابا ولا مداحا . إنه لا يقطع على أحد حديثه . لا يقبل ثناء إلا من مقتصد . لا يغضبه شـىء بسـيط ولا يسـتفزه . يتحدث بحسنى . يستمع بصبر . يناقش بهدوء . يسـتمع باهتمام . إنه رسـول . والرسول يجب أن يكون قدوة . إنه قدوة . والقدوة يجب أولا أن تكون قدوة فى الأخلاق والصفات . لهذا قال رسول الله : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» .

❑❑❑

فى القرآن الكريم نقرأ : «وإنك لعلى خلق عظيم» .

وفـى صحيح مسـلم نقرأ لرسـول الله : «إن الله اصطفى قريشـا من بنـى اسماعيل ، واصطفى بنى هاشم من قريش ، واصطفانى من بنى هاشم» .

وفى كل مرة سئلت عائشة أم المؤمنين عن خلق رسول الله قالت : «كان خلقه القرآن .. يرضى لرضاه ويسخط لسخطه» .

إن محمد رسول . إنه نبى . ولكنه إنسان . والإنسان قد يطغى ، وقد يظلم ، وقد يسىء التصرف . الإنسان قد ينادى بشعار .. ثم لا يطبقه . قد يدعو لمبدأ .. ثم لا يمارسه . وقد ينطق بالعدل .. ولكنه يتصرف عن هوى . لهذا فإن محمدا كان حريصا على أن يسد هذه الفجوة . إن له معركة لنشر رسالته ، ولكن معركته الأولى هى أولا مع نفسه . إن دعوته ، رسالته ، مبادئه ، لا قيمة لها .. مالم يكن هو أولا خاضعا لها ومطبقا لتعاليمها .

لهـذا يقـول محمد لأصحابه بعد عودتهم من الغـزو : مرحبا بكم قد قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر .. جهاد النفس .

ومرة أخرى يقول سـائل لرسـول الله : أى الجهاد أفضل ؟ فيرد الرسـول : جهادك هواك .

إن محمدا يكرر هذا المعنى دائما فى كل إجابة ، وكل مجلس ، وكل مناسـبة . ولكنه أيضا حريص على أن يبدأ بنفسه ، ويجاهد نفسه فى كل دقيقة .. وكل تصرف .

❑❑❑

قال رجل مرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : «يا سيدنا وابن سيدنا ...»

ولكـن الرسـول يرد فورا على الرجـل وغيره فيقول : «يا أيها الناس .. لا يسـتهوينكم الشيطان . أنا محمد بن عبد الله ورسوله . والله ما أحب أن ترفعونى فوق ما رفعنى الله» .

وعندما مات ابنه ابراهيم .. كسـفت الشـمس . ساعتها قال الناس : إن الشمس كسفت لموت ابراهيم .

ولكن الرسـول يقوم فى المسجد ويقول بأعلى صوته : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا تنكسفان لموت أحد ولا لحياته . فإذا رأيتم ذلك فادعو الله وصلوا وتصدقوا .

إن محمـدا أب . إن موت ابنه ابراهيم هو بالنسـبة لـه صدمة لا يعرفها إلا كل أب . ولكـن محمدا هو أيضا قائد . إنه القائد الرسـول . والرسـول صاحب رسـالة . وصاحب

الرسالة قدوة . إنه يرفض وهما خلقته المصادفة . يرفض إطراء لا يحتاج إليه . يرفض مديحا لا يريده . إنه صاحب دعوة . وصاحب الدعوة نموذج . والنموذج الأصيل يريد لأمته الصراحة لا النفاق . إنه يستمد قوته من عقول الناس ، لا من أوهامهم ونفاقهم .

❑❑❑

سئلت عائشة أم المؤمنين – رضى الله عنها – ذات مرة : ماذا كان رسول الله يعمل فى بيته ؟

وأجابت عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بشرا من البشر ، يرقع ثوبه ، ويحلب شاته ، ويصلح نعله ،ويخدم نفسه .

لقد دخل عمر بن الخطاب ذات مرة على رسول الله فوجده مضطجعا على سرير مشدود بشريط ، وتحت رأسه وسادة من جلد حشوها لين .

وحينما رأى عمر آثار الشريط بجنب رسول الله بكى . فسأله الرسول : ما يبكيك يا عمر ؟

قال عمر : والله ما أبكى إلا لأننى أعلم أنك أكرم على الله من كسرى وقيصر ، وهما يعيشان فى الدنيا فيما يعيشان فيه . وأنت يا رسول الله فى المكان الذى أرى .

فقال رسول الله : أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ، ولنا الآخرة ؟

ورد عمر : بلى ..

قال الرسول : فإنه كذلك .

هكذا كان رسول الله . إن الحد الأدنى من كل شىء .. هو أمر كاف بالنسبة له . إن رسالته أهم من راحته . ودعوته أبقى مع تواضعه . وسلطته أكبر مع تقشفه .

لقد كان الشهر بأكمله يمر على أسرته بغير أن توقد نار واحدة فى بيت من بيوت رسول الله . شهر كامل .. أحيانا شهران .. لا يصنعون فيهما خبزا ولا يطبخون قدرا كما كانت عائشة تروى . وحينما سألها عروة بن الزبير : يا خالة .. على أى شىء كنتم تعيشون ؟ قالت عائشة : على الأسودين .. التمر والماء .

ولقد دخل أبو بكر وعمر بن الخطاب ذات مرة على الرسول فى بيته فوجداه صامتا وواجما .. إذ إن عائشة وحفصة – زوجتيه – كانتا تسألان الرسول النفقة .. وهو لا يجد .

وحينما رأى أبو بكر وعمر ذلك قام الأول إلى ابنته عائشة ، والثانى إلى ابنته حفصة ، يريدان عقابهما ويقولان : تسألْنَ رسول الله ما ليس عنده ؟

وكان الرد : والله لا نسأل رسول الله شيئا أبدا ليس عنده .

وبعد أن اعتزلهن رسول الله شهرا نزلت الآية : «يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة ، فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما» (الأحزاب: آية ٢٨ ، ٢٩) .

ثم بدأ الرسول بعائشة قائلا لها : يا عائشة .. إنى أريد أن أعرض عليك أمرا أحب ألا تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك ..

ردت عائشة : وما هو يا رسول الله ؟

وعندما تلا عليها الآية ، قالت : أفيك يا رسول الله أستشير أبوى ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة .

وبتلك الكلمات القليلة أصبح المعنى محددا : القناعة بمستوى أقل مما يعيش فيه كثير من المسلمين .. لأن الأعمال هى الترجمة الفعلية للأقوال .

إن رسول الله لو أراد لاغتنى .. ولو أمر لتمتع . ولكنه يريد شيئا أهم وأبقى . يريد أن يكون مثلا لأمته . يريد من أعماله أن تطابق أقواله . إن رسالته تجعله أفضل الناس . ولكنها لا تجعله فوق الناس . إذا كان فاضلا ، فلأنه صاحب دعوة ، وليس صاحب سطوة .

لقد كان الرسول يطوف مرة بالبيت الحرام .. فقال : اسقونى .

ولكنهم ردوا عليه : إن هذا الماء يخوضه الناس .. وسوف نأتيك بماء من البيت .

ساعتها رد الرسول : لا حاجة لى فيه .. اسقونى مما شرب منه الناس .

وفى مرة دخل على ابنته فاطمة .. فرأى فى يدها سلسلة من ذهب .. بينما هى تقول لامرأة عندها : هذه أهداها أبو الحسن .

ولكن رسول الله قال : يا فاطمة ، أيسرك أن يقول الناس هذا عن ابنة محمد بن عبد الله ؟ . ثم خرج ولم يقعد . فأرسلت فاطمة السلسلة فباعتها ، واشترت بثمنها عبدا ،

فأعتقتــه تقربــا إلى الله . ســاعتها كان تعليق رســول الله : الحمد لله الــذى نجى فاطمة من النار .

ومع وجود هذه القيود الاختيارية التى فرضها رسول الله على نفسه وعلى أسرته ، فإنه كان أكــرم النــاس . فى الواقع إنه كان : «.. أجود ما يكون فى شــهر رمضان حين يلقاه جبريل بالوحى فيدارسه القرآن ، فرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة» .

❑❑❑

عندما طلب ذات مرة عدد من الناس من خارجة بن ثابت أن يحدثهم عن بعض أخلاق الرســول صلى الله عليه وســلم ، قال : «.. كنا إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا . وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا . وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا» .

نعم . لكل وقت عند رسول الله حاجته . لكل شىء عنده ضرورة . إنه يرفض مثلا أن يكون الإيمان عذرا للكسل ، ولا عذرا لسوء المعاملة .

قيل له مرة: إن فلانة تصوم نهارها وتقوم ليلها ، ولكنها ســيئة الخلق تؤذى جيرانها بلسانها .ورد رسول الله : لا خير فيها .. وهى من أهل النار .

ومر الرسول يوما على شيخ تورمت يداه من فرط العمل ، فأخذ اليد المتورمة يشد عليها قائلا : هذه يد يحبها الله ورسوله .

إن العمل عند رســول الله هو قيمة عليا . هو شــرف . هو واجب . إنه يقول : «ما أكل أحد طعاما قط .. خيرا من أن يأكل من عمل يده» . ويقول أيضا : «لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب به فيبيعه .. خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه» .

❑❑❑

الرســول يريــد لأمتــه المعرفة والعلــم . إنه يقول «طلــب العلم فريضة على كل مســلم ومســلمة» . ويقول أيضا «إذا أتى على يــوم لا أزداد فيه علما ، فلا بورك فى طلوع شمس ذلك اليوم» .

وقبل أن يريد الرســول لأمته العمل والعلم ، فإنه يريد لها العدل . إنه يقول «ما بعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة ، إلا كانت له بطانتان . بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه . والمعصوم من عصم الله» .

إن العـدل عند رسـول الله هو قيمة فوق كل قيمة . إنه يطلبـه من الحاكم . ثم يطلبه من المحكوم . إن الرسول يحذر «ما من أحد يكون من أمور هذه الأمة ، فلم يعدل فيهم ، إلا كبه الله فى النار» . ومرة أخرى يحذر «أشـد الناس عذابا يوم القيامة من أشـركه الله فى سـلطانه فجار فى حكمه» . ولكن الرسـول يعلم أيضا أن المحكوم مسئول أولا عن عدل حاكمه. لهذا يقول النبى «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده» . ثم يقول من جديد «كما تكونون يولـى عليكم» . أصل صحيح لصورة معاصرة : كل شعب يستحق الحكومة التى تحكمه .

إن الرسول يريد لأمته الرحمة : ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء .

والرسول يريد لأمته العزة : من أعطى الذلة من نفسه طائعا غير مكره فليس منى .

والرسـول يريد لأمته الأصالة : اتقوا المهلكات .. شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه .

الرسـول إذن يريد لأمته القوة . يريد العدل . يريد التواضع ، الصراحة ، الشـجاعة ، الإيمان ، العلم ، العمل ، العزة . يريد الرسول لأمته الحلم ،والأخلاق .يريد النظافة . إنه يقـول : «إن الله طيـب يحب الطيب . نظيف يحـب النظافة . كريم يحب الكرم . جواد يحب الجود . فنظفوا أفنيتكم ولا تتشبهوا باليهود» .

إن الرسـول كان يأمر أصحابه بالنظافة . ولقد كان هو يغسـل يديه قبل الأكل وبعده ، ويمشط شعره ، ويسرح لحيته ، وينظف أسنانه بالسواك ، ويحرص على ذلك بعد الطعام والاستيقاظ من النوم ، ويقول لصحبه «اغتسلوا يوم الجمعة ولو كأسا بدينار» .

إن النظافة عند الرسول هى جزء من الإيمان ، مثلما الكرم جزء من الإيمان ، والتواضع جزء من الإيمان ، والعدل جزء من الإيمان ، والشجاعة أيضا .. جزء من الإيمان . وسوف نجد هذا متناسقا فى شخصية محمد .

حينما تسأل عائشة : كيف كان الرسول فى أهله ؟ فإنها تجيب : كان ألين الناس ، وأكرم الناس ، وكان ضحاكا بساما .

وحينما يسـأل خادمه أنس نفس السـؤال يقول : كان رسـول الله صلى الله عليه وسلم يكثـر الذكـر ويقل اللغو ويركب الحمار ويلبس الصـوف ويجيب دعوة المملوك . إنه ، فى

المزاح ، أفكه الناس مع صبى . وفى الحياء ، أشد حياء من العذراء . إنه لا يسب ولا يلعن ولا يفحش القول . إنه – بتعبير عائشة رضى الله عنها – لم يضرب بيده خادما له قط ولا امرأة ، ولم يضرب بيده شيئا إلا إذا كان يجاهد فى سبيل الله . ولم يتح له الاختيار بين شيئين إلا اختار أيسرهما .. ما لم يكن إثما . فإذا كان إثما ، فإن الرسول يكون أبعد الناس عن الإثم . إنه لا ينتقم لنفسه من شىء إلا إذا انتهكت حرمات الله . ساعتها فقط يتحرك الرسول . إنه يتحرك انتقاما لعزة الله وجلالته .

والرسول ، حينما يتعلق الأمر بعقيدته أو مبادئه ، لا يساوم . إنه يعلن بكل قوة : «والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر لما فعلت ، حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه» . هذا هو كل الرد الذى يكرره رسول الله . . إنه ، فى رسالته ودعوته ، لا يقبل مساومات أو أنصاف حلول . وإلى أن يظهر الله كلمته ، فإنه سوف يتحمل كل المصاعب والآلام .. مواجها لها بقلب كله إيمان .. وعقل كله ثقة.. وجسم كله شجاعة .

وحتى قبل أن يحمل محمد الرسالة ، حتى وهو مايزال صبيا فإنه يرفض أن يقسم بآلهة قومه . ثم يتقدم مع قافلته ليكبح جماح فحل من الإبل توحش على القافلة . إنه يسبق قومه عندما يهابون واديا مليئا بالماء ويقول : اتبعونى ، اتبعونى .

وحينما يفزع أهل «المدينة» فى إحدى الليالى .. يجدون أن رسول الله قد سبقهم إلى مصدر الصوت ، مصدر الخطر ، بسيف فى عنقه وكلمات فى فمه : لن تراعوا . وفى يوم حنين وجد الرسول أن الناس قد بدأوا يفرون عنه . ولكنه يقف على بغلته صائحا فيهم :

أنا النبى لا كذب

أنا بن عبد المطلب

وما دام الرسول كذلك فإن الله ناصره . إن الله تعالى يقول : «ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون» (آل عمران: آية ١٢٣). إن بدرًا كانت أول تجربة للرسول فى إدارة المعارك الكبرى . لقد دخل الرسول «غزوة بدر» وليس معه سوى أربعة عشر وثلثمائة رجل . سلاحهم السيوف . أفراسهم ثلاث . بعيرهم سبعون . وفى مقابل ذلك كانت قريش تواجهه كاملة العدة : المقاتلون ألف . الفرسان مائة . البعير سبعمائة .

نعم . هذه إذن هى النقطة : بثلثمائة رجل وعقيدة واحدة يكسب الرسول المعركة . إن رجاله أقل ، وسلاحه أقل ، واستعداده أقل .. ولكن إيمانه أكبر ، وعقيدته أعظم ، وثقته أضخم .

إن الرسول فى تلك المعركة الكبيرة الأولى يرفع كلمة ربه .. ويؤكد من جديد قدرته على أن يكون قدوة . إن جنديا فى جيشه ، هو الحباب بن المنذر ، يراجع رسول الله فى المكان الذى اختاره للنزال فى بدر ويسأله : يا رسول الله .. هل هذا المكان أنزلك الله فيه لا نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

والرسول يرد : بل هو الرأى والحرب والمكيدة .

فيقول الحباب : يا رسول الله .. هذا إذن ليس موقعا مناسبا .

وحينما يقترح الجندى على القائد موقعا آخر ، يوافقه القائد – يوافقه النبى – ويقول له : لقد أشرت بالرأى .

إن محمدا رسول . إنه نبى . إنه صاحب رسالة . إنه المصطفى من عند الله . ولكنه مع ذلك يريد حوله رجالا يستطيعون أن يقولوا له : لا . جنودا يستطيعون أن يناقشوه ، ويراجعوه فى الرأى . ولو اختار الرسول غير هؤلاء .. لو اختار مجرد ناس يوافقون .. مجرد ناس ينافقون .. لاختلف الأمر كثيرا ، واختلفت النتيجة جدا .

إن الرسول حينما يخوض معركة عسكرية ، فإنه يخوضها بمنطق الرجل العسكرى .. وتخطيط الرجل العسكرى . إنه يفكر فى كل التفاصيل ، ويسد كل الثغرات . ولكن ، أهم من هذا كله ، إنه يهاجم ليدافع . إن محمدا لم يبدأ أحدا بالعدوان . ولكن حينما يريد الدفاع .. فهو الذى يهاجم أولا . إنه يستعد ويستعد ويستعد . إنه يصبر ويصبر ويصبر . ولكنه حينما يحس بشراسة عدوه .. فإنه لا يعطيه فرصة الاختيار . لا يعطيه ميزة البدء بالهجوم . إن البداية هى نصف الحرب . لهذا فإن الرسول القائد يحرص دائما على أن يحتفظ لنفسه بزمام المبادرة . إذا كان لابد من الحرب .. فإنه هو الذى يجب أن يضرب بأول سيف ، ويختار أفضل موقع ، ويحدد أنسب لحظة .

□□□

هذا هو القائد ، الرسـول ، النبي . إنه الرجل الذى كتب عنه الكاتب الغربى ليونارد قائـلا : «إن كان رجـل على هذه الأرض قد عـرف الله ، وإن كان رجل على هذه الأرض قد أخلص له ، وفنى فى خدمته بقصد شريف ودافع عظيم .. فإن هذا الرجل هو بلا شك محمد نبى العرب» .

نعم . محمد هو هذا الرجل . من صباحه إلى مسائه . من شروقه إلى غروبه . من مولده إلى وفاته . وحينما توفى النبى ، حينما ذهب القائد ، وجدوا على سـيفه صلى الله عليه وسلم هذه الكلمات المحفورة : «اعف عمن ظلمك ، وصل من قطعك ، وأحسن إلى من أساء إليك ، وقل الحق ولو على نفسك» .

عمر بن الخطاب
تقرير عن نزاهة الحكم

— ١ —

من الذى قال إن السقوط الأخلاقى ثمن لنجاح رجل السياسة ؟

— ٢ —

عمر بن الخطاب رجل سياسة . إنه إنسان وحاكم وسلطان وأمير للمؤمنين . بحكم إنسانيته كان محبًا للغناء ومتذوقا للشعر . بعد خلافته استمر ومتذوقا للشعر لكن فيما يفيض من وقت بعد مواجهة مسئوليات الحكم . وهو فى الحكم اشتهر بحزمه وعدله واستقامته . لكنه من اللحظة الأولى أدرك أن استقامة الحاكم لا تنفصل عن استقامة معاونيه . واستقامة المعاونين لا تنفصل عن محاسبتهم .. لأن الاستقامة ليست مجرد بداية . إنها امتحان يتجدد أمام الناس يوما بعد يوم .

ذات يوم سأل من حوله : هل إذا وليت عليكم خير من أعلم ، ثم أمرته بالعدل بينكم ، أكون قد استوفيت مسئوليتى ؟ قالوا : نعم . لكنه استدركهم قائلا : أبدا .. حتى أنظر فيما يعمله وأراجع مدى استمراره فى استقامته . فإذا أصاب .. فهذه كفاءته . لكنه إذا أخطأ .. فتلك مسئوليتى .

— ٣ —

توفى النبى محمد بغير أن يوصى بمن يخلفه . محمد رسول اصطفاه الله .وبوفاته اكتملت الرسالة . فى نفس اللحظة بدأت الدولة . والدولة بدأت بعاصفة .

كان السؤال الجوهرى هو : من الأحق بخلافة رسول الله ؟ ليس خلافته فى الدين ولكن خلافته فى تولى السلطة . سلطة قيادة الدولة الوليدة الناشئة . البعض يصر على أن يكون

● جريدة «أخبار اليوم» : ١٩٧٥/٩/٦ .

الخليفة من الأنصار ، وهم الأغلبية . والبعض يريده من المهاجرين . وهم الأقلية . البعض الثالث يريده من عائلة النبى محمد أخذا بفكرة أن القرابة تزكى المرشح لتولى السلطة . كلها عصبيات . وكل عصبية جاهزة بحجتها . وأصبح انقسام الرأى ، وعصبية كل فريق ، أول الأخطار التى تواجه الدولة الجديدة فى يوم اختيار الخليفة .

- ٤ -

لعدة أسباب كان موقف عمر بن الخطاب فى ذلك اليوم هو الحاسم لكل خلاف . عمر معروف باستقامته ، وبضميره ، وبحزمه ، وبعدله ، وبشدته فى الحق وعزوفه عن السلطة .

قال أبو بكر الصديق لعمر بن الخطاب : ابسط يدك نبايع لك .

رد عمر : أنت أفضل منى .

قال أبو بكر : وأنت أقوى منى .

رد عمر : إن قوتى لك ، مع فضلك .

عندها فقط .. اجتمعت كلمة الحاضرين . الجميع هدأ . الجميع اقتنع . وأصبح أبو بكر أول خليفة لرسول الله فى الدولة الجديدة الوليدة . ومرت العاصفة .. لتبدأ الدولة . فى زمن الرسول كانت الرسالة . والرسالة هى القرآن . وفى زمن الرسول كان محمد بن عبد الله يقول للناس أيضا : أنتم أدرى بشئون دنياكم . فى ولاية الخليفة الأول كان أبو بكر مشغولا بحماية الأمر الواقع ضد المتمردين . ثم خلفه عمر بن الخطاب لمرحلة تالية ، ستكون الأكثر حسما لأنها ، بعد نشر الرسالة ، مرحلة إقامة الدولة .

فى إقامة الدولة الوليدة كان التحدى مزدوجا . هناك تحدٍّ من الداخل ، وهو خطر الارتداد إلى عصبيات القبائل ثم الفروع المتعددة داخل القبيلة الواحدة . هذا مجتمع بدوى صغير مايزال قريب العهد بالجاهلية ، وحديث المصالح الضيقة المباشرة خفت صوته أيام الرسول لكن المشوار مايزال طويلا لتعميق روح الإسلام قبل نصوصه .

وهناك أيضا تحدٍّ فى الخارج تمثله امبراطوريات محيطة ومجتمعات وبيئات مختلفة ومتنوعة أكثر تطورا وتقدما وبأسا .. وأصبح فيها من يتوجس من جاذبية الرسالة الجديدة ودعوتها إلى مجتمع إنسانى أفضل .

فى مثل تلك اللحظة الحرجة بدأت ولاية عمر بن الخطاب . وفيما بعد سوف يسجل عبد الله بن مسعود عن عمر : «كان إسلامه فتحا ، وكانت هجرته نصرا ، وكانت إمارته رحمة» . وفيما بعد أيضا قال معاوية بن أبى سفيان موازنا بين الخلفاء الأوائل : «أما أبو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده . وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها . وأما نحن فتمرغنا فيها ظهرا لبطن» .

لكن هذه وغيرها من الأحكام والتقييمات التالية هى استباق للأحداث . فى اللحظة الراهنة نحن ما نزال فى الأشهر الأولى من ولاية عمر بن الخطاب .. وفى مرحلته الأولى التى يتحول فيها من رجل سياسة إلى رجل دولة .

- ٥ -

عمر بن الخطاب يتجول ليلا فى المدينة . إنه دائما يفعل ذلك مطمئنا بنفسه على أحوال المواطنين . فى هذه المرة وقع شىء مختلف . لقد شاهد رجلا وامرأة فى بيت ، يشربان الخمر .

فى الصباح استدعى عمر الرجل مواجها له بتهمته متأهبا لتوقيع العقوبة عليه .

سأل الرجل : من أخبرك يا أمير المؤمنين بأننى شربت الخمر أمس ؟

رد عمر بن الخطاب : أنا شاهدتك .. بنفسى . شاهدتك تعصى الله ..

قال الرجل : يا أمير المؤمنين . أنا عصيت الله فى واحدة ، وأنت عصيته فى ثلاث . إن الله يأمر بدخول البيوت من أبوابها .. وأنت لم تفعل ذلك . والله ينهاكم عن دخول بيوت قبل أن تسلموا على أهلها .. وأنت لم تفعل ذلك . والله يمنع من التجسس .. وأنت فعلت ذلك .

الآن انقلبت القضية أمام أمير المؤمنين . إن هدفه أخلاقى ، فالجريمة هى شرب الخمر . ولكن الوسيلة نفسها غير أخلاقية . إن الحاكم هنا يحتج بالهدف .. والمواطن يحتج بالوسيلة .. فما العمل ؟

العمل هو أن يتراجع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . فأخلاقية الهدف لا تبرر عدم أخلاقية الوسيلة .

- ٦ -

تراجع عمر بن الخطاب .

- ٧ -

كان عمر واثقا ، فلم يخشى المعارضة . عظيما ، فلم يخش النقد . قنوعا ، فلم يخضع للثروة . ديموقراطيا ، فلم يخش الثورة . أمينا ، فلم يخش الخيانة . عادلا ، فلم يخشى الظلم . قويا ، فلم يضعف . كبيرا ، فلم يستعن بصغار النفوس . واضحا ، فلم يلتو . شجاعا ، فلم يخش غير الله . حكيما ، ففرق بين الحزم والإرهاب . عفيفا ، فلم يحقد . متواضعا ، فلم يتجبر . رحيما ، فلم يتعسف . حرا ، فلم يستعبد . زاهدا ، فلم يشته . قنوعا ، فلم يطمع . منتصرا ، فلم يستبد .

وكان عمر بشرا ، فأدرك أن العصمة لله وحده . كان إنسانا ، فعرف كيف يقسو على نفسه قبل أن يقسو على الآخرين . عمر كان يقسو على نفسه .

- ٨ -

فى الجاهلية عرفه الجميع : طويل القامة ، نحيل القوام ، أبيض اللون ، أعسر أيسر ، سريع الخطوة ، جيد البيان ، حسن الكلام ، جهورى الصوت ، عصبى المشاعر ، رقيق القلب ، نادر الابتسامة ، دائم الصرامة ، شديد الجدية ، معتز النفس ، رقيق الحس ، مستقيم الرأى ، عميق الرقة ، فظيع الغضب .

فى الإسلام أيضا عرفه الجميع : شديد العداء ، عميق الصداقة ، صريح الرأى ، واسع الاجتهاد ، مخلص المشورة ، عنيف الجهاد ، طاهر الإيمان ، جاهد مع رسول الله فى رسالته فأبلى .. وأشار على أبو بكر فى خلافته .. فصدق .

- ٩ -

مرض أبو بكر .

- ١٠ -

فى المرض خشى أبو بكر من اختلاف المسلمين بعده إذا توفى . لهذا أراد أن يختار لهم خليفة من بعده . لقد نظر وتأمل وفكر ، فاستقر على اختيار عمر بن الخطاب . ولكى يطمئن قلبه .. فإنه طلب من كبار الصحابة حوله رأيهم فى هذا الترشيح .

لقد أجابوه جميعا : إن عمر فاضل وصادق ومؤمن ، ولكن ...

هنا بدأت اعتراضاتهم .

بعضهم قال : إن فيه غلظة .. والسياسة تحتاج إلى مرونة . وبعضهم قال : إن مظهره أشد صرامة من جوهره .. والسياسة تحتاج إلى العكس .

وبعضهم دخل مع أبى بكر فى فراش مرضه يسألونه فى احتجاج : ماذا تقول لربك إذا سألك عن استخلاف عمر علينا ؟ لقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه .. فكيف إذا خلا بهم بعد لقاء ربك ؟

هنا غضب أبو بكر . لقد صاح بأهله فأجلسوه على الفراش . وعندما جلس قال غاضبا : أبالله تخوفوننى ؟ اللهم إنى استخلفت على أهلك خير أهلك .

نعم . أدرك أبو بكر أن الإسلام فى لحظة شدة . ولحظات الشدة تحتاج إلى حاكم يصارح الناس ولا ينافقهم . يعدل بين الناس ولا يمالئهم . إن أبو بكر يعرف عن عمر حقيقته ، ولكن الآخرين يعرفون عنه سمعته . . إن السمعة هى حصيلة جمع وطرح المشاعر نحو عمر . ولكن أبو بكر يريد إنجازات عمر . لهذا أشرف أبو بكر على الناس يخاطبهم : أترضون بمن أستخلف لكم ؟ فإنى والله ما ألوت من جهد الرأى ، ولا وليت ذا قرابة ، وإنى قد وليت عمر بن الخطاب .. فاسمعوا له وأطيعوا .

- ١١ -

مساء الاثنين : مات أبو بكر .

- ١٢ -

ظهر الثلاثاء . الخليفة الجديد عمر بن الخطاب يخطب فى المسجد : أيها الناس .. ما أنا إلا رجل مثلكم .. ولولا أنى كرهت أن أرد أمر خليفة رسول الله ما تقلدت أمركم . الصمت .

عمر يبتهل والناس تسمع : اللهم إنى غليظ فاجعلنى لينا . اللهم إنى ضعيف فاجعلنى قويا . اللهم إنى بخيل فاجعلنى سخيا ..

فى هذه المرة : الانتظار .. والصمت .

عمر يقرر والناس تسمع : إن الله ابتلاكم بى ، وابتلانى بكم ..

تلك هى كل أوراق التوصية التى حملها عمر إلى الناس فى منصبه الجديد : إسلام وإيمان وقدر وشخصية .

الآن بدأ الحاكم . وبدأت المسئولية .

- ١٣ -

المهمة الأولى : عمر بن الخطاب يريد متطوعين . إنه يريدهم للخدمة فى جيش المسلمين الذى يحارب ضد الفرس فى العراق . لقد ضغط الفرس واشتدوا فى هجومهم .. وانسحب جيش المسلمين إلى مدينة «الحيرة» ، وهو الآن فى موقف صعب . إن الانتظار ضرر والموقف حرج واللحظة خطرة والخليفة يطلب متطوعين .

لا متطوعين .

يوما ويومين وثلاثة : لا متطوعين . هل الناس ما زالوا يخشون فى عمر شدته ؟ إذن .. فليوضح لهم عمر .

حين الصلاة قال لهم أمير المؤمنين عمر : «اعلموا أن تلك الشدة قد اضعفت ، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدى على المسلمين . فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض . ولست أدع أحدا يظلم أحدا أو يعتدى عليه حتى أضع خده على الأرض ، وأضع قدمى على الخد الآخر حتى يذعن للحق . وإنى بعد شدتى تلك أضع خدى على الأرض لأهل العفاف والكفاف ... فاتقوا الله عباد الله ، وأعينونى على أنفسكم بكفها عنى . وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإحضارى النصيحة فيما ولانى الله من أمركم . أقول هذا واستغفر الله لى ولكم» .

انتهى كلام عمر ، وبدأ تفكير الناس . ساعة وأخرى ، ثم بدأت استجابتهم .

كان الأول هو أبو عبيد الثقفى . إذن .. يكون قائد الجيش هو أبو عبيد الثقفى .

الآن .. انتهى التردد ، وبدأ الحسم .

- ١٤ -

قرار رقم ٢ من أمير المؤمنين إلى جيش المسلمين فى الشام : يعزل خالد بن الوليد من القيادة العامة اكتفاء بقيادته لأحد الألوية . من الآن فصاعدا تصبح القيادة العامة لأبى عبيدة بن الجراح .

السبب المبدئى هو : تأخر الجيش فى الشام عن إنجاز مهمته و .. أسباب أخرى .

ثـم ، تحذير من الخليفة الجديد إلى القائـد الجديد : قد أبلاك الله بى وأبلانى بك . فغض بصرك على الدنيا واله قلبك عنها ، وإياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيتم مصارعهم .

ثـم ، تحذير آخر لكل من يهمه الأمر من المسـلمين : مـن الآن فصاعدا بدأ الحزم مع العدل .. والحق مع الرحمة .. والحسم مع الحكمة .. والشدة مع المراجعة .

من الآن فصاعدا لاقوة إلا بالحق .. ولا حسـاب إلا بالنتيجة .. ولا إعفاء إلا بالعدل . من الآن فصاعدا : لا أحد فوق المراجعة أو النقد أو الحساب .

— ١٥ —

العرب يتقدمون فى فلسطين . فى اليرموك . يحاصرون دمشق . يحتلون «حمص» .

العرب يتقدمون ويتقدمون . ومع كل تقدم يكتب عمر إلى كل واحد من قواد جيوشه : «اكتب إلـىّ بجميع أحوالكم وتفاصيلها ، وكيف تنزلون وأين يكون منكم عدوكم . واجعلنى بكتبك إلـى كأنى أنظر إليكم . واجعلنى من أمركم على الجلية» .

— ١٦ —

انتصار حاسم للمسلمين فى العراق . إنها موقعة القادسية .

— ١٧ —

مشكلة شخصية يواجهها عمر . لقد تزوج وهو الآن يريد أن يتزوج من جديد .لقد أرسل يخطب بنت عتبة بن ربيعة . رفضت بنت عتبة . السبب ؟ إن عمر «.. أذهله أمر آخرته عن أمر دنياه كأنه ينظر إلى ربه بعينه» .

لا بأس على أمير المؤمنين ، فليخطب غيرها . فى هذه المرة طلب من عائشة بنت أبى بكـر أن تخطـب إليه أختها أم كلثوم . رفضت أم كلثوم . السـبب ؟ قالت هى : إن عمر خشن العيش شديد على النساء .

مشـكلة شخصية أخرى : أمير المؤمنين يريد أن يشترى فرسا . لقد اختار فرسا وذهب إلى صاحبهـا يسـاومه ويطلـب ركوبها ليجربهـا . وعندما ركب عمر الفـرس وركض بها جرحت الفرس . هنا أراد أمير المؤمنين أن يرد الفرس إلى صاحبها .. فرفض .

والحل ؟

قال الرجل لأمير المؤمنين : اجعل بينى وبينك حكما . وليكن الحكم هو شريح العراقى .

وجاء شريح العراقى يحكم بين المواطن العادى وبين أمير المؤمنين . وصدر حكم القاضى ضد أمير المؤمنين : يا عمر .. إما أن ترد الفرس كما أخذتها بغير جرح .. أو تشتريها بثمنها قبل أن تجرحها .

ورد أمير المؤمنين : نعم ، هكذا يكون القضاء .

لقد تصالح البائع والمشترى . أما القاضى ، فقد عينه أمير المؤمنين فورا قاضيا باسمه فى الكوفة ، وهو المنصب الذى ظل فيه لسنوات طويلة بعدها .

- ١٨ -

انتصارات جديدة للمسلمين . لقد سقطت فى أيديهم «المدائن» فى العراق . انتصار قال عنه المؤرخ الإسلامى ابن كثير : «كان يوما عظيما وخرقا باهرا ومعجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، خلقها الله لأصحابه ، ولم ير مثلها فى تلك البلاد ولا فى بقعة من البقاع» .

- ١٩ -

من سعد بن أبى وقاص قائد جيش المسلمين فى العراق ، إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى المدينة : هذا خمس الغنائم فى انتصارنا ، نصيب بيت المال .

ونظر عمر أمامه فوجد طعاما ونقدا وذهبا وفضة فى ضخامة لم ير مثلها من قبل . لقد التفت قائلا لمن حوله : والله إن قوما يؤدون هذا .. هم بالفعل أمناء .

ورد عليه على بن أبى طالب : الفضل لك . إنك عففت فعفت رعيتك . ولو لم تفعل أنت لما فعلوا هم .

- ٢٠ -

عمر بن الخطاب يزور بيت المقدس بعد أن أكمل العرب فتح فلسطين . غزة أولا ثم فلسطين .

عمر يسير مع أسقف بيت المقدس داخل المدينة . وبينما الأسقف يصحب عمر فى زيارته لكنيسة القيامة المشهورة أدرك عمر موعد الصلاة . وعرف الأسقف فطلب إلى أمير المؤمنين أن يؤدى صلاته فى مكانه داخل الكنيسة ، فهى أيضا من مساجد الله .

اعتذر عمر . فلو فعل ذلك .. قد يظن المسلمون أنها سنة مستحبة . فإذا فعلوا ذلك – وهم الآن الفاتحون – فقد يخرجون النصارى من كنيستهم .. وذلك مخالفة لعهد الأمان الذى أعطاه عمر للمسيحيين سكان بيت المقدس .

إن عمر يفرق جيدا بين سلطة الفتح ، وسلطة الإكراه فى الدين . لا إكراه فى الدين .

– ٢١ –

من المدينة ، بعد عودته إليها ، يسمع عمر أن خالد بن الوليد قد أساء التصرف فى الشام . إن خالدًا محارب لا يعوض وسيف من سيوف الله – نعم – ولكنه أساء التصرف . هل تشفع له فتوحاته وإنجازاته عند الخليفة ، أو لا تشفع ؟

لا تشفع .

إذن يجرى التحقيق مع خالد : هل صحيح أنه منح أحد الشعراء عشرة آلاف درهم ؟ هل المنحة من ماله أو هى من أموال المسلمين ؟

رد خالد على الخليفة : إما أن تدعنى بعملى ، وإلا فشأنك بعملك .

وقرر الخليفة أن يعزل خالدًا .. من كل شىء فى هذه المرة . يحاسب أولا ويحقق معه ويحاكم علنا أمام الناس ، ثم يعزل .

إذا كانت الهدية من مال خالد ، فقد أسرف . وإذا كانت من مال المسلمين ، فقد خان الأمانة .

ولكن العزل شىء ، والانتقام شىء آخر . إن عمر يريد بعزل خالد أن يحذر غيره . ولكنه لا يريد أن يتشفى من خالد إرضاء لشهوة . لهذا أرسل عمر يذيع فى الأمصار : «إنى لم أعزل خالدا عن سخطة ولا خيانة . ولكن الناس فتنوا به ، فخفت أن يوكلوا إليه ويبتلوا به .. فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وألا يكونوا بعرض فتنة» .

– ٢٢ –

هل أخطأ عمر ؟ وإذا كان قد أخطأ .. فهل يقبل من المواطنين العاديين أن ينتقدوه علنا وهو حاكم لهم ؟ نعم .. نعم . فإذا كان من حق الحاكم أن يقرر .. فإن من حق المواطن أيضا أن يسأل ويناقش ويعترض علنا .

لقد اعترض عمرو بن حفص على الخليفة علنا أمام جمع من المسلمين متهما إياه بقوله : والله ما أعذرت يا عمر ! لقد نزعت عاملا استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضعت لواء رفعه رسول الله .. وغمدت سيفا سله الله .. وقطعت الرحم .. وحسدت ابن العم .

هذا إذن ليس مجرد اعتراض . إنه اتهام صريح من «المواطن» عمرو إلى «الحاكم» عمر . اتهام بأنه ظالم وسببه الحسد الشخصى . ماذا يفعل الحاكم ؟ يغضب ؟ يعتقل ؟ يشنق ؟

لا . لم يفعل عمر بن الخطاب شيئا من ذلك .

كل ما فعله هو رد بسيط هادىء قال فيه : إنك قريب القرابة ، حديث السن ، مغضب فى ابن عمك .

— ٢٣ —

عام المجاعة . فى تسمية أخرى هو : عام الرمادة .

لقد أمسك المطر – فى مفاجأة من القدر – عن شبه الجزيرة العربية كلها تسعة شهور كاملة ، هلك فيها الزرع والضرع والحرث والنسل . ماذا يصنع عمر ؟ طبعا هو يدعو الله . ثم ماذا ؟ يدبر الناس فينظم لهم الطعام فى حصص شهرية كنظام البطاقات التموينية الذى عرفته تاليا كل دولة تواجه لحظات من الشدة . لكن هذا يتطلب أولا معرفة المستحقين للحصص الغذائية . إذن لابد من إحصائهم ، ومن هنا كان هذا أول إحصاء شامل لأعداد المسلمين . ثم ماذا أخيرا ؟ أن يبدأ أمير المؤمنين بنفسه فيخضع للقيود الصارمة التى فرضها . أن يقتسم مع الناس جوعهم .

لقد تساءل عمر : كيف يعنينى شأن الرعية إذا لم يمسنى ما يمسهم ؟

إنه رفض امتيازات السلطة ، ووسائل المنصب . ومادام الناس يجوعون فهو أيضا يجوع . إن الناس حرموا من السمن واللبن واللحم .. إذن على الخليفة أن يعيش محروما مثلهم .

لكن عمر بن الخطاب فعل ما هو أكثر . إن عقاب السارق هو حد من حدود الله . الآن يقرر عمر أن يوقف تنفيذ حد السرقة ، لأنه استشار واجتهد ورأى أن إقامة حد السرقة فى هذه الظروف الطارئة من الشدة والمجاعة سيكون بلاء للمسلمين فوق بلاء . الآن يعتبر

عمر فى المجاعة ضرورة تقتضى تعطيلا مؤقتا لحد السرقة ، إذ الحدود تدرأ بالشبهات . لم يكن هذا ابتعادا عن حد من حدودالله . فقط كان اجتهادا حكيما فى التطبيق .

وحدث غير المتوقع : فالناس هم الذين يدعون الآن لخليفتهم . لقد اسود لونه ورق عظمه وضعف جسمه وشحب وجهه . ورأى الناس ذلك فقالوا : لو لم يرفع الله المحنة عام المجاعة لظننا أن عمر يموت .. همّا بأمر المسلمين .

- ٢٤ -

بعد سنة من الجوع والوباء .. هبط المطر وزالت المصيبة . الآن عاد بعض الرخاء .. وعاد معه الجهاد فى سبيل الله . لقد تحرك جيش المسلمين مقتحما شرق فارس . قتال وحصار وقتال وغنائم ثم : استسلم القائد الفارسى . أما الغنائم فللمسلمين . أما القائد الفارسى فيرسل أسيرا إلى أمير المؤمنين .

فى المدينة أدخلوا الأسير إلى المسجد . لا شىء .

إن الفارس القائد لم ير أحدا فى المسجد سوى رجل نائم ، بلا شىء يستره سوى جلباب مرقع . بلا حارس ولا حاجب ولا سكرتير ولا كاتب . ولكن أين الأمير ؟

لقد ردوا عليه : هذا هو .. نائم أمامك .

قال القائد الأسير : ينبغى أن يكون هذا الرجل نبيا .. فإذا لم يكن .. فإنه يعمل عمل الأنبياء .

- ٢٥ -

فى مشوار السلطة مع عمر بن الخطاب ومشواره معها .. أصبح عمر يتحول تدريجيا من رجل سياسة إلى رجل دولة . أصبح يزداد اهتماما بمسئولية الدولة عن فقرائها وضعفائها . ويزداد موازنة بين العدل والرحمة . ويزداد تركيزا على رفض الإسلام لمفهوم التواكل ثم تركيزا أكبر وأكبر على قيمة العمل . لم يكن أبغض إلى عمر بن الخطاب من رجل يتوانى ليقال إنه متوكل على الله ، أو يتراءى بالضعف ليقال إنه ناسك ، أو يفرط فى العبادة ليقال إنه زاهد فى الدنيا . من هنا كان عمر يقول ويكرر : «ليس خيركم من عمل للآخرة وترك الدنيا ، أو عمل للدنيا وترك الآخرة . ولكن خيركم من أخذ من هذه ومن هذه . وإنما الحرج فى الرغبة فيما تجاوز قدر الحاجة وزاد على حد الكفاية» .

وعمر يقول أيضا : «لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى .. وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة . إن الله تعالى يرزق الناس بعضهم من بعض» .

وبحكم إيمان عمر بن الخطاب ، ومن موقعه فى السلطة ، كان يجتهد بما يراه استجابة للمتغيرات الجديدة . لقد تابعناه مثلا وهو يوقف العمل بحد السرقة فى عام المجاعة . ولظروف أخرى نهى عمر عن زواج المتعة ، ونهى عن التحلل من بعض مناسك الحج .. ولم يكن منهيا عنهما كل النهى فى حياة النبى عليه السلام . فكان الرجل يتزوج بالمرأة لأجل معلوم ثم يتركها . وكان منهم من ينوى الحج ثم يتحلل من بعض مناسكه . فنهى عنهما عمر فى أيام خلافته وقال : «متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أنهى عنهما وأضرب عليهما» .

— ٢٦ —

ما هى مهمة الحاكم .. بالضبط ؟

أن يدير ويدبر ويقرر ويحكم ؟ طبعا . ولكن .. فقط ؟ إن الحاكم مهمته أولا – وقبل أى شىء آخر – هى أن يقود . إن الدستور – وهو القرآن فى حالة عمر بن الخطاب ـ يحدد للحاكم طبعا أعباء مسجلة وثابتة . ولكن .. فقط فقط ؟ لقد كان الرسول يقول للناس : أنتم أعلم بشئون دنياكم . وبوفاة الرسول أصبح على من يخلفه أن يدير شئون الرعية بنزاهة ومسئولية وقدرة على الاجتهاد فى مواجهة مستجدات شئون الدولة .

فى المستوى الشخصى كان عمر يريد أن يبدأ بنفسه ليعطى قدوة للآخرين . لم يجد غضاضة فى أن يعترف لامرأة جادلته بأنها هى المحقة .. مقررا : أصابت امرأة وأخطأ عمر . وفى مناقشة أخرى ، مع رجل فى تلك المرة ، انفعل الرجل قائلا له : اتق الله يا أمير المؤمنين . لقد غضب رجل حاضر مع عمر فنهر الرجل قائلا باستنكار : أتقول لأمير المؤمنين اتق الله ؟! لكن عمر قاطعه بقوله : دعه يقلها لى .. فلا خير فيكم إذا لم تقولوها.. ولا خير فينا إذا لم نقبلها منكم .

بل إن عمر لم يكن يتقبل النقد فقط ، وإنما كان يحرض عليه أيضا ، مكررا قوله : إن أحب الناس إلى من أهدى إلى عيوبى .

وحينما تولى عمر بن الخطاب السلطة كان اللقب الشائع لتسميته هو «خليفة خليفة رسول الله» باعتباره خليفة لأبى بكر الذى كان بدوره خليفة لرسول الله . لكن عمر

رأى فى التسمية استطالة ، فاختار لقب «أمير المؤمنين» ، وأصبح بذلك أول من نودى بهذا اللقب .

لم يكن عمر بن الخطاب مجرد حاكم مثل غيره من الحكام . كان حاكما فوق غيره من الحكام لأنه أدرك أولا هذا الظرف الاستثنائى لنشأة الدولة الإسلامية . وأدرك ثانيا البعد الآخر فى مسئولية الحاكم كقائد . مسئوليته الأخلاقية . إن الأخلاقيات كلها تبدأ قوتها من هناك .. من فوق . وانهيارها أيضا يبدأ من فوق . لقد قال على بن أبى طالب لعمر مرة : إنك أتعبت الخلفاء من بعدك . هذا صحيح . لقد أتعبهم عمر من حيث أنه وضع مقياسا أخلاقيا مرتفعا للغاية يجب أن يقيسه الناس عليه .

لقد بدأ من بداية البداية . بدأ برؤيته لنفسه على أنه موظف عام عند جموع المسلمين . أمير لهم ، ليكن ، لكنه مايزال موظفا وعليه واجبات وأمامه مسئولية . هكذا طلب عددا من الصحابة فى المدينة ملحا عليهم بتحديد مرتب محدد له كحاكم . مرتب شهرى معروف للكافة مقدما ويدبر أحواله فى حدوده لأن بيت المال العام حرام عليه . وطلب منهم أيضا التشاور بشأن من يخلفه ، فالأعمار بيد الله. وحينما قيل له إن أبا بكر قد استخلفه هو فلا بأس بأن يسمى هو أيضا خليفته . لكن عمر رفض بتاتا ، متمسكا بالشورى ، وكل ما اقترحه عليهم هو ستة أسماء لصحابة هو متأكد من أن رسول الله توفى راضيا عنهم . الستة هم : عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف .

لم تكن المسألة ملحة ولا عاجلة . لكن عمرا كان يشغله أمر آخر . لقد أوصى بأن يشهد ابنه عبد الله على ألا يكون له من الأمر شىء . وبالتزام عبد الله أمام الجميع ضمن عمر مبدأ أهم : لا وراثة للحكم .. والسلطة تكون للأكثر كفاءة ومعرفة ومن خلال الشورى .

كان الحكم عند الناس ميزة . ولكنه عند عمر عبء . الحكم عندهم سلطة .. وعند عمر مسئولية . السلطة عندهم شهوة .. وعنده هو أمانة . الشهوة عندهم قوة .. وعنده هو ضعف . الضعف عندهم ضرورة .. وعنده هو محسوبية . المحسوبية عندهم تعصب .. وعنده هو انهيار . الانهيار عندهم يبدأ من الخارج .. وعنده هو خطر من الداخل . الداخل عندهم تركة يقتسمونها .. وعنده هو نزاهة يتشدد فيها .

نعـم . مع عمر كانـت نزاهة الحكم مقدمة عنده علـى كل اعتبار . لذلك كان يحصى أموال الولاة قبل ولايتهم ، فإذا زادت بعدها زيادة تضع نزاهتهم موضع الشبهة .. قاسمهم مالهم .. واسـتولى للمسلمين على كل زيادة فيه . لهذا كان يحذر ولاته دائما قائلا : نحن إنما بعثناكم ولاة .. ولم نبعثكم تجارا .

إن التاريخ هو بالضرورة تقرير عن تصرفات البشر . وعمر كبشر ، كان يريد التاريخ . وعمر كحاكم .. كان يريد أن يقدم أحسن ما يستطيعه كبشر . لقد أدرك أن القواعد تحترم إذا كان أول من يخضع لها هم الذين وضعوها . إن أول قاعدة هى أن على الحاكم أن يمثل أحسن ما فى أمته وليس اسوأ ما فيها . عليه أن يكون حاكمها .. وفى نفس الوقت : ضميرها .

وعمر بن الخطاب كان ضمير هذه الأمة . لهذا حاسـب نفسـه أولا .. قبل أن يحاسب الآخرين .

- ٢٧ -

رأى المسـلمون فـى المدينة الكثير من شـدة عمر على نفسـه . إنهـم انتدبوا من بينهم وفدا . بعض أعضائه يدفعهم النفاق للسلطة .. والأغلبية يدفعهم الإخلاص للضمير . ذهب الوفد إلى حفصة بنت عمر يقولون لها : إن الله بسـط فى الرزق على المسـلمين .. فليبسـط أمير المؤمنين فيما شاء منه .. وهو فى حل من جماعة المسلمين .

ودخلـت حفصة علـى أبيها تخبره . وعندمـا انتهت أجابها : يا حفصـة بنت عمر .. نصحت قومك وغششت أباك . إنما حق أهلى فى نفسى ومالى . فأما دينى وأمامتى .. فلا .

- ٢٨ -

فتح مصر .

- ٢٩ -

رسـالة من عمرو بن العاص قائد جيش المسـلمين الفاتح فى مصر .. إلى أمير المؤمنين فى المدينة : «أما بعد . فإنى فتحت مدينة لا أصف ما فيها ، غير أنى أصبت فيها أربعة آلاف بنية بأربعة آلاف حمام ، وأربعين ألف يهودى عليهم الجزية ، وأربعمائة ملهى للملوك» .

كانت رسالة متعجلة . فلقد نسى عمرو بن العاص أن يذكر لخليفته أن المدينة فيها أيضا ١٢ ألف بقال ، وأن المدينة هى عاصمة مصر ، وأن اسمها هو الإسكندرية .

- ٣٠ -

رسالة جديدة من عمرو بن العاص إلى المدينة : «ورد كتاب أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - يسألنى عن مصر . اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر ، يكنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر . يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ، ميمون الروحات ، تجرى فيها الزيادة والنقصان ، كجرى الشمس والقمر .. فتبارك الله خالق لما يشاء . الذى يصلح هذه البلاد وينميها ، ويقر قاطنيها فيها ، ألا يقبل قول خسيسها فى رئيسها ، وألا يستأدى خراج ثمرة إلا فى أوانها ، وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها» .

- ٣١ -

من أمير المؤمنين عمر ، إلى والى مصر عمرو بن العاص : لماذا نقص خراج مصر الذى ترسله .. إلى أقل من نصف ما كانت تؤديه للرومان قبل أن يحكمها المسلمون ؟

عمرو بن العاص يرد : إنا بدأنا فى مصر تعميرا للخراب ، ومشروعات كثيرة .. جعلت الإيراد ينقص .

أمير المؤمنين يرسل مهددا : قد علمت أنك لم يمنعك من ذلك يا ابن العاص إلا عمالك عمال السوء ، وما توالس عليه وتلفف .. وعندى بإذن الله شفاء عما أسألك عنه .

عمرو بن العاص يرد على أمير المؤمنين بالبريد غاضبا : قد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومن بعده ، فكنا بحمد الله مؤدين لأمانتنا حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا ، نرى غير ذلك قبيحا والعمل به مشينا ، معاذ الله .. بعد كتابك الذى لم تستبق فيه عرضا ولم تكرم أخا . والله يا ابن الخطاب لأنا حين يراد ذلك منى أشد لنفسى غضبا ولها إنزاها وإكراما .. يغفر الله لك ولنا .

مع عودة البريد جاء توبيخ أمير المؤمنين : يا ابن العاص .. لم أقدمك إلى مصر أجعلها طعمة لك ولا لقومك .

وازدادت شكوك عمر . إنه سمع أن ثروة عمرو بن العاص قد تضاعفت فى مصر بحكم منصبه . لهذا فكر وتدبر وتحقق ثم أرسل إلى عمرو بن العاص بقراره : «إنى قد خبرت من عمال السوء ما كفى . وكتابك إلى كتاب من قد أقلقه الأخذ بالحق . وقد سؤت بك ظنا ،

ووجهت إليك محمد بن سلمة ليقاسمك مالك . فأطلعه طلعة وأخرج إليه ما يطالبك ، واعفه من الغلظة عليك» .

وجاء مندوب أمير المؤمنين إلى مصر يفتش بدقة . يفتش على نزاهة الحكم ونزاهة الذمم .

ولم يكن تشدد عمر على نفسه إلا نموذجا ومقدمة لتشدده على معاونيه فى السلطة فى القرب والبعد . وطوال سنواته فى السلطة نبه على وجهاء قريش بعدم مغادرة «المدينة» إلى البلدان التى دخلت الإسلام إلا بإذن منه ، ولمدة محددة . ولم يكن هذا التشدد منه تسلطا.. وإنما لحكمة . فحينما اشتكى منه وجهاء قريش وقف عمر ليقول علنا : «إن قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونة على ما فى أنفسهم ... أما وابن الخطاب حى فلا . إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم فى البلاد» .

أما مع الصحابة فكان يريد منهم البقاء فى «المدينة» لحكمة أخرى . فأولا هو يريدهم معه كمجلس للمشورة عند الحاجة . لكن الأهم هو أنه يريد أن يجنبهم ولاية المناصب والأعمال التنفيذية قائلا لمن راجعه فى ذلك : «أكره أن أدنسهم بالعمل» . وبلغة عصرنا هذا يعنى الفصل بين السلطتين التشريعية والتنفيذية . وعلى ضوء تطورات تالية من الملفت هنا أن الجميع التزموا بما قرره عمر بن الخطاب . لكن هذا لم يكن ممكنا إلا لأنه بدأ بنفسه متعاملا مع السلطة باعتبارها عبئا وضميرا ومسئولية . وحينما حاول المغيرة بن شعبة ذات يوم أن يزين لعمر توريث الخلافة لأحد من أسرته كان رد عمر مفحما : «لا رأب لنا فى أموركم ، وما حمدتها فأرغب فيها لأحد من بيتى . إن كان خيرا فقد أصبنا منه ، وإن كان شرا فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد» .

- ٣٢ -

أمر القرآن بالشورى . وعمر ، كحاكم ، يمارس الشورى . لقد منع الصحابة من مبارحة المدينة - وهم نحو مائة وثلاثين بين رجل وامرأة - حتى يكونوا بمثابة جمعية تشريعية . كان منهم من انصرف إلى معاشه ، واقلهم مارس الفقه . لكن حتى هؤلاء كثيرا ما تورعوا عن الفتيا وكل منهم يحيل على غيره خشية الزلل والخطأ . وفيما بعد سوف يؤدى تفرقهم بين الأمصار وتنوع ظروفهم إلى اختلافات حتمية ، ربما تحركها أهواء ومصالح .

لكـن هذا كان ما يـزال فى علم الغيب . الآن مايزال عمر بـن الخطاب هو الذى يقود سفينة الدولة الفتية . وهو لا يكتفى فقط بأن يخبر مستشاريه . لا يكتفى حتى بأن يتشاور معهم .. ثم يتقدم بعدها أماما إلى أى اتجاه . هذا لا يكفى . إن الشـورى فى مفهومه هى أن يجعل مستشاريه يلعبون دورا حقيقيا فى التشكيل الفعلى لسياسـة الدولة .

أن عمر يستشـير أصحـاب الرأى من صحابـة وأقارب رسـول الله . ولكنه لا يوليهم مناصـب . إنه فى كل مشـكلة يتخذ القرار الأخير . ولكنه قبل كل قرار يستشـير . كان يستشـير أهل الرأى ، ويستشير جمهور المواطنين ، ويستشير الأحداث وصغار السن . مع هؤلاء الشباب الصغار يحس عمر أن المصالح لم تقيدهم بعد .. وتعقيدات الحياة لم تفقدهم الرؤيـة بعـد . إنهم قليلو الخبرة عديمو النفوذ ولكنهـم أولا واضحو الأفكار طاهرو النفوس صادقو الإحساس . وفى النهاية فإن المبادئ عندهم ما زالت أهم من الأشخاص .. والوسائل عندهم مازالت جزءا من الأهداف .

بهذا ، وغيره كثير ، تطورت واتسـعت وانتشـرت الدولة الإسـلامية فى عهد عمر ابن الخطاب ، وفى زمن قياسـى . لقد تولى عمر الخلافة فى سـنة ١٣ هجرية (الموافقة ٦٣٤ ميلادية) . لم يكن كافيا أن تواصل جيوش الدولة الوليدة فى عهده تلك الفتوحات الأولى التى بدأت فى عهد أبو بكر . فمع تطور الأحداث واتسـاع المسئوليات كان لازما استنباط أسس جديدة ونظم إدارية متطورة وضبط المصروفات مع الإيرادات . من هنا كان عمـر بن الخطاب هو أول من اتخذ ديوانـا لضبط المال العام وحدد مرتبا معلوما لرئيس الدولة وقرر التأريخ منذ الهجرة واستخدم مفهوم «من أين لك هذا» لكى يمنع ولاته من إغراء وسـطوة الفساد وقنن لاستخدام القضاة المسـتقلين عن ولاة الأمصار واجتهد حتى فى حد ثابت من حدود الله عام المجاعة وأكد بأن العدل هو – تماما مثل الظلم – يبدأ دائما من أعلى وأن أمضى أسباب القوة فى يد الحاكم هو أن يبدأ بنفسه ليصبح أول من يعطى القدوة فى الشفافية ونزاهة الحكم وعفة اليد واللسان والذمة . ومع أن البعض من قبيلة قريش تطلعوا وسـعوا فيما بعد ليصبحوا مراكز قوة وثروة ..إلا أنهم طوال رئاسـة عمر بن الخطاب للدولة لم يجرءوا على الجهر بذلك فى وجوده . هو لم يتعمد القسـوة على أحد . فقط بدأ بالقسوة على نفسه ، وبالإصرار على قضية مبدئية عنوانها : نزاهة نظام الحكم .

بهذا ، وغيره ، امتد الإسلام فى عهد عمر ونشأت معه امبراطورية كبرى امتدت حتى ليبيا غربا وفارس شرقا وبحر قزوين شمالا وصعيد مصر جنوبا . امبراطورية أقامها المسلمون – بقيادة عمر – فى عشر سنوات .

– ٣٣ –

قتل عمر .

– ٣٤ –

قبل دفنه اكتشفوا أن عمر بن الخطاب ، أمير المؤمنين ، مدين بديون كان قد أوصى ابنه مسبقا بسدادها ، وسوف يبيع ابنه حالا دارا ليسددها .

عند دفنه اكتشفوا أيضا أن جثمان عمر هو الذى مات . ولكن ذكرى عمر ما تزال مستمرة . فعند الموت تذهب السلطة ويبدأ الامتحان . امتحان الزمن .

ولأن قيمة عمر بن الخطاب كانت حقيقية ، فإن الموت أضاف إليها .. ولم يخصم منها .

– ٣٥ –

من الذى قال: إن السقوط الأخلاقى ثمن لنجاح رجل السياسة ؟

وشىء آخر : عمر بن الخطاب كان رجل دولة .. قبل كونه رجل سياسة .

المحارب .. خالد بن الوليد

سبتمبر

سنة ٦٢٩ م .

شرق الأردن .

جيش صغير . جنوده ثلاثة آلاف . قائده زيد بن حارثة . مهمته تأديبية . القرار أصدره النبى . السبب هو وفد أرسله النبى إلى القبائل القريبة من حدود الشام يدعوهم إلى الإسلام . قتلوا الوفد . عددهم خمسة عشر . نجا واحد فقط . فى نفس الوقت قتل رسول آخر أرسله النبى إلى هرقل ملك الروم . النتيجة : لابد من حملة تأديبية لمعاقبة المعتدين .

هذه أول حملة إسلامية ضخمة تخرج من «المدينة» – مقر قيادة النبى – إلى هذه المسافة البعيدة قرب حدود الشام . الحملة تتجه إلى قرية اسمها «مؤتة» . الحملة كلها سميت فيما بعد «غزوة مؤتة» .

الجيش الذى يقوم بهذه الحملة اختار النبى قائده مقدما . إنه زيد بن حارثة . «.. فإن قتل ، فجعفر بن أبى طالب . فإن قتل ، فعبد الله بن رواحة . فإن قتل .. فليرتض المسلمون من بينهم رجلا ليجعلوه عليهم» .

إن خالد بن الوليد جندى عادى فى هذا الجيش . جندى متطوع . فى الواقع إنه لم يعلن إسلامه إلا قبل شهرين اثنين فقط . نحن إذن فى السنة الثامنة للهجرة .

ولكن أنباء حشد الجيش تسربت إلى جنود العدو فى مملكة الروم . لهذا استعد هرقل بقوات عسكرية ضخمة .

● جريدة «أخبار اليوم» : ١٩٦٩/١١/٢٢ .

حينما وصل المسلمون فوجئوا بهذه الحشود تواجههم . لقد استمروا يومين يتشاورون . هل نكتب إلى النبى ليرسل إلينا مددا .. أو نحارب ونستشهد ؟

القرار : نستشهد .

عندما بدأ القتال حمل زيد بن حارثة راية القيادة . قتل . حملها جعفر بن أبى طالب . قطعت يده اليمنى . حملها بيده اليسرى . قطعت . احتضنها بجسمه . قتل . رفع الراية عنه عبد الله بن رواحة . قتل . الآن .. من يتولى القيادة ؟ من .. من .. من ؟ .. إنه هو : خالد بن الوليد . هكذا اختار الجيش .

بدأ خالد يفكر . الانتصار ؟ .. مستحيل ، فجيش العدو أضعاف جيشه . الصمود ؟ .. قاتل ، فلا توجد إمدادات قادمة فى الطريق . الانسحاب ؟ .. ربما ..

وفعلا . فى ظلام الليل قام خالد بتغيير مواقع كتائب الجيش . ثم كلف مجموعة منه بأن تقف خلف الجيش لتثير الغبار .. حتى يتصور جنود العدو فى الصباح أن إمدادات جديدة قد وصلت إلى الجيش الإسلامى . خدعة . إنها خدعة أقنعت الجيش الرومانى بألا يطارد جيش خالد وهو ينسحب عائدا إلى «المدينة» .

فى تلك المعركة تكسرت فى يد خالد تسعة سيوف . لم تثبت فى يده سوى صفيحة يمانية يقاتل بها وهو يحمى انسحاب جيشه . ولقد تم انسحاب بمهارة فائقة .. وبدأ الجيش الإسلامى يعود إلى «المدينة» .

❑❑❑

المدينة .

منظر لا يتوقعه أحد .

الإنسحاب هو انسحاب . إنه ليس تقدما ، ليس انتصارا ، ليس غزوا . إنه .. هروب . تراجع . نكسة . فرار .

«.. يا فرار ، فررتم فى سبيل الله ؟» . هكذا خرج المسلمون من «المدينة» يصيحون فى جنود الجيش العائد من الشمال بقيادة خالد بن الوليد . إنهم يقذفون الجنود بالتراب عقابا لهم على تراجعهم . رأى عام .

ولكن النبى صلى الله عليه وسلم حين أدرك حقيقة ما حدث يعلن : «إنهم الكرار بإذن الله .. وليسوا بالفرار» .

إن كلمات النبى هدأت من ثورة الرأى العام فى «المدينة» . ولكنها لم تقض عليها تماما . لقد استمر الرأى العام قوة ضاغطة تذكر العائدين بانسحابهم . بل إن أم سلمة زوجة رسول الله سألت فى مرة زوجة سلمة بن هشام صهر النبى : مالى لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

أجابت الزوجة : إنه والله لا يستطيع أن يخرج . كلما خرج صاح به الناس : يا فرار ، فررتم فى سبيل الله ؟ .. حتى قعد فى بيته !

نعم .. لن ينسى المسلمون هذه الهزيمة . إنهم يطلبون الثأر . وسوف يتحقق لهم الثأر . ثأر سوف يصر عليه النبى ، وسوف يحققه نفس الجيش ، ونفس القائد : خالد بن الوليد .

❑❑❑

خالد محارب من قبيلة بنى مخزوم - فرع من قريش . إنه عظيم الجسم ، مهيب الطلعة ، أبيض اللون ، طويل القامة . إنه ينتمى إلى واحدة من أغنى الأسر العربية . جده «المغيرة» يتشرف الناس بالانتساب إليه . أبوه يكسو الكعبة وحده سنة ، وتكسوها قريش كلها سنة أخرى . عمه من أكرم العرب . عمه الآخر أعلنت قريش حدادها سنة كاملة عند وفاته .

وخالد على رغم هذا محارب . فى جسمه صفات المحارب ، وفى حياته أيضا . إنه غنى ، كثير الغنى ، ومع ذلك فقد كان يروض نفسه عمدا منذ الصغر على تحمل الجوع والظمأ وأكل الأطعمة التى يعافها الناس . ومنذ صباه المبكر رشحه أبوه لقيادة الفرسان . إن أباه واحد من أشد المتعصبين الذين حاربوا النبى فى صدر رسالته . بل إن خالدًا نفسه كان قائدا لفرسان قريش فى غزوة أحد التى هزم فيها المسلمون .

ولكن خالدًا له عقل أيضا ، مثلما له جسم وسمعة ومال . لهذا استغرق إسلامه وقتا طويلا . لقد بدأ بمحاربة النبى والمسلمين . ولكنه بعد أن قاتلهم بدأ يفكر ويوازن ويختار .. إلى أن هداه الله . لقد ذهب فى النهاية إلى النبى فى «المدينة» ليعلن له إسلامه . فى تلك اللحظة دعا النبى ربه : اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صد فى سبيلك .

من هذه اللحظة اختاره النبى محاربا يقوى به الإسلام . ولكن ، نظرا لحداثة إسلامه .فقد ذهب فى «غزوة مؤتة» جنديا عاديا . غزوة عاد منها قائدا .. ولكن على رأس جيش منسحب .

إن الإنسحاب والهزيمة لم يحجبا عن النبى صلى الله عليه وسلم كفاءة خالد كمحارب . لهذا يقول النبى عن خالد إنه : سيف من سيوف الله .. سله الله على المشركين . لكن هذا مايزال أيضا فى علم الغيب . الله وحده يعلم ما إذا كان النبى مصيبا فى هذه التسمية.. أو مخطئا . الأيام وحدها سوف تكشف ذلك .

❑❑❑

الربيع .

جنوب مكة .

الغرور . الاستخفاف . التهاون . الاستهتار . الثقة المفرطة .

هذه هى الصفات التى سيطرت على المسلمين فى ذلك اليوم . يوم لا ينسى .

إن المسلمين فتحوا مكة منذ أشهر قليلة . ذلك الفتح أعطاهم ثقة فى أنفسهم لا حدود لها . ولكن سقوط مكة فى أيدى النبى أثار عليه عددا من القبائل المحيطة بها . لقد أدركوا أن الدور عليهم هذه المرة . لهذا قرروا أن يأخذوا بزمام المبادرة ويبدأوا الهجوم على النبى والمسلمين فى مكة . وحينما علم النبى بذلك خرج إليهم على رأس جيش ضخم . وتقابل الفريقان فى موقعة تسمى «غزوة حنين» .

ذهب المسلمون إلى هذه المعركة وهم يعلمون أنهم أكبر عددا وأضخم سلاحا وأكثر ثقة . وفى مقابل ذلك كان عدوهم يملك شيئا آخر : كان أكثر استماتة . هذا يكفى لانتصاره .

عندما بدأت المعركة فى الفجر ، تحولت مزايا الكثرة عند المسلمين إلى نقمة . لقد تصوروا أن الكثرة تغنى عن الاستعداد . والسلاح يغنى عن التفكير . والثقة تمنع المفاجأة . أخطأوا . لم يهتموا باستطلاع قوات العدو . لم يحرصوا على البدء بالهجوم .

النتيجة : ثمن غال دفعه المسلمون . هنا يقول القرآن الكريم : «.. ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين» (التوبة : آية ٢٥) .

هزم المسلمون إذن . هزمت الكثرة والضخامة ، والثقة المفرطة . تراجع المسلمون . إن معهم النبى . معهم العقيدة . معهم الحق . ولكن معهم الغرور . هذا يكفى لهزيمتهم . هزيمة منكرة . لقد فرت الخيل ، وتراجعت المشاة ، وشاعت الفوضى .

فـــى تلك اللحظة لم ينقذ الموقف ســـوى بروز النبـــى إلى مقدمة الصفوف . فعلى أنقاض الهزيمة المروعة أمسك النبى الزمام بنفسه ، ليقود المسلمين إلى هجوم جديد . هجوم استعاد لهم النصر المفقود كاملا .

□□□

صحراء الحجاز .

أرض نجد .

٦٣٢ م . السنة العاشرة للهجرة .

مرت ســـنتان منذ «غزوة حنين» . ســـنتان اشترك فيهما خالد بن الوليد مع النبى . أو بأمر النبى ، فى مهام كثيرة . ولكن الســـنتين انتهتا بحدث جلل اهتز له كل المســـلمين : وفاة النبى .

وبوفـــاة النبى نشـــأ وضع جديد أمام خليفته أبو بكـــر . لقد ظهر فى القبائل بعض الناس يدَّعون لأنفسهم النبوة . وارتدت قبائل عربية كثيرة عن الإسلام . بل إن بعضها هدد بالهجوم على مكة .. بينما الجيش الرئيســـى للمســـلمين ذهب إلى الشمال فى حملة تأديبية ضد الروم ثأرا لموقعة «مؤتة». قرار اتخذه النبى قبل وفاته ، وأصر أبو بكر على المضى فى تنفيذه .

فـــى هـذا الموقف الصعب قرر أبو بكر أن يحارب المرتدين عن الإســـلام فورا . لقد قام بقيادة المرحلة الأولى من الحرب بنفســـه . وعندما عاد الجيش الإســـلامى من الشـــمال .. بدأت المرحلـــة التاليـــة . مرحلـــة قرر أبو بكر أن تكون قيادة الجيـــوش فيها من نصيب : خالد بن الوليد .

الآن فقط .. ســـوف تتأكد نبوءة محمد رســـول الله . الآن ســـوف يصبح خالد بن الوليد ســـيفا من ســـيوف الله سله على المشـــركين . إنه يخرج بجيشه إلى الصحراء مهاجما قبائل المرتدين ومتعقبا لهم . إن طليحة – مدعى النبوة – يفر إلى الشـــام هاربا بعد انتصار خالد عليه . إن قبيلة بنى تميم تستسلم له .

ولكن معارك خالد فى حروب الردة لم تكن كلها بمثل هذه السهولة . فى الواقع هناك معركة سوف تكون أقسى عليه كثيرا من أى معركة شهدها من قبل .

□□□

الصحراء .

حديقة الموت .

٦٣٢ م .

هـذه المعركة الكبرى التى يخوضها خالد فى «اليمامة» ضد بنى حنيفة معركة ضارية . إن ضـراوة المعركـة ترجع إلى أن بنى حنيفة كانوا هم البادئين بالهجوم على جيش خالد . ولكن خالدا حفظ هذا الدرس من قبل . إنه يحتفظ بجيشه فى حالة استعداد دائم للقتال . فـى أى وقـت من النهار أو الليل ، فى أى مكان من الصحراء ، فى أى حالة يكون عليها الجيش .. فإن الجميع مستعدون دائما .

وعلى رغم عنف الهجوم الذى شـنه بنو حنيفة ، وعلى رغم حدة رياح الصحراء التى هبت أثناء المعركة ، إلا أن خالدا سـرعان ما اسـتعاد زمام المبادرة واضطر المهاجمين إلى التراجع داخل حديقة نخيل قريبة تحيط بها الأسـوار . ولكن خالدا لايكفيه التراجع من عدوه . لقد اقتحم الأسـوار ونقل المعركة إلى داخل الحديقة ووسـط أشـجار النخيل . من شجرة إلى شجرة .. سوف يقاتل المسلمون كل مرتد عن دين الله .

من هذه اللحظة سميت الحديقة «حديقة الموت» . لقد أبيد فيها المشركون عن آخرهم .. وعلى رأس القتلى مسـيلمة الكذاب الذى أدعى لنفسـه النبوة . من بين القتلى أيضا ١٢٠٠ من المسلمين .

❑❑❑

يناير ٦٣٢ م .

بيت الخليفة .

هل أخطأ خالد بزواجه من تلك المرأة ؟

سـؤال بحثه الخليفة أبو بكر مرتين . فى المرة الأولى عندما جاءت الأنباء فى مكة بأن خالدا تزوج من أرملة مالك بن نويرة زعيم بنى تميم الذين أمر خالد بقتل عدد منهم .

كانت المشكلة هى أن خالدا تسرع فى قتل مالك قبل أن يتأكد من إسلامه ، أو يرسله إلى الخليفة فى مكة . هل تعمد خالد أن يقتل مالكا حتى يستطيع الزواج بأرملته .. أو لم يكن متعمدا ؟ . لم يكن متعمدا . هكذا اقتنع الخليفة أبو بكر رضى الله عنه .

إن معركة «اليمامة» كانت آخر المعارك الكبرى ضد المرتدين . بعدها سيطرت جيوش المسلمين على كل أنحاء الجزيرة العربية حتى عمان واليمن فى الجنوب . حرب استغرقت سنة واحدة وانتهت فى يونيو ٦٣٣ م .

من الآن فصاعدا لن يحارب مسلم مسلما آخر . إن القبائل العربية التى كانت تحارب بعضها قبل الإسلام ، وتحارب بعضها بعد وفاة النبى ، سوف تحارب جنبا إلى جنب لأول مرة ضد عدو مشترك يقف على حدودها : دولة الفرس .. ثم دولة الروم ، أكبر قوتين عالميتين فى ذلك الوقت .

من الآن سوف يرى العرب ماذا تستطيع قوتهم الحقيقية أن تفعل لهم حينما يتحدون . إن اتحادهم سوف يحقق لهم ما لا تستطيعه أحلامهم . إن دولة فارس كبيرة ، ضخمة ، مخيفة . لقد بلغ من سمعتها أن خالدا حينما أعلن لجنوده أن الخليفة أمره ببدء الزحف على فارس .. رفض عدد من الجنود الذهاب معه .

ساعتها كتب خالد إلى أبى بكر يطلب منه جيشا إضافيا . وفعلا ، أجابه أبو بكر إلى طلبه . ولكنه بدلا من أن يرسل إليه جيشا .. أرسل إليه رجلا . نعم ، رجلا واحدا أرسله أبو بكر إلى خالد . رجلا اسمه القعقاع بن عمرو !

وحينما سئل أبو بكر : كيف تمد قائدا انفض عنه جنوده .. برجل واحد ؟

أجاب أبو بكر : إن جيشا فيه مثل هذا الرجل .. لايمكن أن يهزم .

و .. صدق أبو بكر .

ففى المواقف الحرجة ، يستطيع رجل واحد .. عقل واحد .. أن يؤدى مهمة جيش بأكمله . إن يقظة القعقاع بن عمرو استطاعت أن تنقذ خالد بن الوليد من خدعة دبرها القائد الفارسى لقتل خالد شخصيا من ظهره فى أول موقعة .

وقبل أن يبدأ خالد الهجوم أرسل إلى القائد الفارسى ينذره : إما الإسلام .. وأما دفع الجزية .. وأما الحرب . فإذا اختار القائد الفارسى الحرب فعليه أن يعلم مقدما أنه سيواجه - يقول خالد - قوما : «.. يحبون الموت كما تحبون الحياة» .

نعم ، هذا هو المفتاح أخيرا . هذا هو أول فارق رئيسى بين جيش المسلمين وجيش فارس . إن الجندى المسلم فى جيش خالد ، وقبله خالدًا نفسه ، يحرص على الموت فى

سبيل الله بقدر ما يحرص عدوه على الموت فى سبيل الدنيا . إن جيشا تسوده هذه الروح لابد أن تخشاه الهزيمة .

وخالد بن الوليد هنا نموذج فى قيادته . إنه إنسان بين جنوده ، محارب أمامهم ، شرس على عدوهم .

خالد محارب . إنه لايدافع أبدا ، ولكنه يهاجم دائما .لا ينتظر ، ولكن يبادر . لا يتوقف ، ولكن يتقدم . لا الزوجة ولا الأسرة ولا الأطفال .. تستطيع أن تمنع خالدًا من اقتحام ميدان القتال . إنه محارب . والمحارب كالطبيب .. يعيش دائما فى حالة طوارىء .

إن الجندية بالنسبة له ليست حرفة . ليست وظيفة تبدأ بميعاد وتنتهى بميعاد . الحرب عند خالد هى أسلوب كامل للحياة . نظام كامل من التفكير . والحرب عنده هى صاعقة .. تصيب هدفها فى غمضة عين . لهذا يحرص خالد دائما على أن يبدأ ، ويبادر ، ويفاجيء ، ويتحرك بسرعة . إنه يركز مجهوده فى هجوم عنيف .. كاسح .. شرس .. يفاجيء به عدوه . إن التقدم ، والتراجع ، والالتفاف ، هى أعمال تنطلق منه كخبطة سيف : حادة ، قاطعة ، حاسمة .

إن قائدا بهذا الفهم لروح القتال .. لايمكن أن تصيبه الهزيمة .هذا ما حدث فعلا فى معاركه التالية . لقد انطلق فى حربه ضد جيوش فارس .. ينتصر وينتصر . إن المدن تتساقط أمامه واحدة بعد الأخرى :الحفير ، الأبل ، الولجة ، الحيرة ، عين التمر ، الأنبار .. و .. و ..

لقد واجه خالد الفرس فى ١٥ موقعة .. لم يهزم فى واحدة منها قط . إنه ينتصر ليحارب من جديد ، ثم من جديد .. إلى أن أرسل إليه الخليفة أبو بكر تعليمات بالانتظار . يريده الخليفة أن ينتظر حتى ينتصر زميله «عياض بن غنم» الذى يحارب فى مكان آخر بين العراق والشام : دومة الجندل .

انتظر خالد . طال الانتظار . مر شهر . شهران . مرت سنة . إن خالدًا يسميها «سنة نساء» لأنها فى قاموسه الخاص سنة عاطلة .. مرت بلا معارك .

بعد سنة وصلت التعليمات الجديدة من مكة . تعليمات عامة .

□□□

يناير ٦٣٤ م .

مدينة الحيرة .

العـــراق .

هـــذه هى التعليمات التـــى وصلت إلى خالد فى مدينة الحيرة ، مقـــر قيادته العليا فى العراق : اتجه إلى الشام .

هكذا كتب أبو بكر من مكة إلى خالد فى العراق . إن أبا بكر أرسل إلى الشام قبل سنة – فى الســـنة الثانية عشـــرة هجرية – ثلاثة جيوش لغزوها وهزيمة الروم فيها . إلى دمشق جيش يقوده يزيد بن أبى ســـفيان .جيش إلى الأردن ، يقوده شـــرحبيل بن حسنة . جيش إلى فلسطين ، يقوده عمرو بن العاص .

ولكن الإمبراطورية الرومانية تستعد الآن لإنزال هزيمة حاسمة بالمسلمين . جيش ضخم يجرى إعداده فى الشـــام لهذا الغرض . لهذا قرر أبو بكر تجميع الجيوش الإســـلامية فى جيش واحد . جيش يقوده خالد ، فأبو بكر يصمم : «والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد» .

فى الحرب لابد من هذه القاعدة : إذا توقعك عدوك من ثلاث طرق .. فاذهب إليه من الطريق الرابع . هذه هى المفاجأة .

فى الطريق إلى الشام اصبح على خالد وجيشه أن يقطع مسافة تتراوح مابين ٥٠٠ و٦٠٠ ميل . هناك ثلاث طرق توصله . ولكن .. ألا يوجد طريق رابع لا يســـلكه الناس ؟ نعم . طريق وعر مخيف قليل الماء عظيم المخاطر لا يطرقه أحد . إذن القرار : يســـلكه خالد بن الوليد .

إنـــه أصعب الطرق ، وأخطرها ، وكذلـــك .. أقصرها . إنه أيضا – وهذا مهم للغاية – طريق لايتوقعه العدو . لهذا السبب فقط يصبح هذا الطريق عند خالد هو أنسب الطرق .

كان هذا القرار مغامرة . الحرب مغامرة . ولكن المغامرة يجب أن تكون محسوبة . لهذا جمع خالد عددا من الإبل ، ومنع عنها الماء لعدة أيام ، فأصبحت الإبل عطشى جدا . ثم أتاح لها الماء .. فشربت تماما . فى هذه الحالة تختزن الإبل كميات من المياه فى مثاناتها عدة أيام قبل أن تستهلكه تدريجيا . طريقة يلجأ إليها بدو الصحراء حتى الآن .

وعلى طول الطريق الصحراوى الخطر إلى الشـام كان خالد ينحر كل يوم عددا من هذه الإبل ليشرب جيشه الماء من بطونها . ثم بدأ خالد يشتبك مع العدو . إن وصوله إلى مدينة «تدمر» كان مفاجأة مذهلة . إن معركته فى «مرج راهط» – ١٥ ميلا شـرق دمشـق – كانت مفاجـأة أخـرى . ثم توالت المعارك .. ولكنها جميعا كانت تمهيدا إلى المعركة الفاصلة بين الروم والمسلمين . معركة اليرموك .

فى اليرموك يقول خالد لعدد من جنوده إن الروم قد استعدوا تماما لهذا اليوم و«.. هذا يوم له ما بعده . إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم . إن هزمونا لن نفلح بعدها» .

السـطر الأخير تحته مائة خط . ليس هذا صدام جيشـين . هذا صدام أقدار . ليس فى هذه المعركة منتصر ومهزوم . فيها فقط حى وميت . قاتل وقتيل .

بهـذه الـروح ، بهذا الجيش ، لهذا الهدف .. دخل خالد بن الوليد معركة اليرموك . النتيجة : انتصار سـاحق . حسـاب طويل صُفِّىَ .. وحسـاب طويل فتح .. بعضه مستمر حتى اليوم .

لقد اسـتطاع السـيف أخيرا أن يسـتخلص ثأرا ويسوى حسـابا مفتوحا منذ انسحاب الجيش الإسـلامى الذى أرسـله النبى إلى حدود الروم قبل ثلاث سنوات : «غزوة مؤتة» . كان خالد جنديا فيها ثم قائدا .. تتذكر ؟

❑❑❑

انتهت المعركة الحاسمة .

خطاب من المدينة .

مفاجـأة .

«.. أوصيـك بتقـوى الله الـذى يبقى ، ويفنى ما سـواه . الذى هدانـا من الضلالة ، وأخرجنا من الظلمات إلى النور . وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد فقم بأمرهم الذى يحق عليك .. وقد أبلاك الله بى ، وأبلانى بك ، فغمض بصرك عن الدنيا» .

نحن فى السنة الثالثة عشرة هجرية حينما تسلم أبو عبيدة بن الجراح بمقره فى جيوش الشام هذا الخطاب القادم من طرف عمر بن الخطاب فى المدينة .

فى الخطاب خبر : وفاة أبو بكر وتولى عمر بن الخطاب منصب الخلافة من بعده .

وفـي الخطـاب مفاجأة : عزل خالد بن الوليد من منصـب القيادة العامة على جيوش الشام – مازال قائدا على جيش العراق – ثم تولية أبو عبيدة مركز القيادة مكان خالد .

ولقد أشـار المؤرخون إلى أسـباب كثيرة تبرر أو تفسر عزل خالد . قال بعضهم: إن عمر بن الخطاب لم ينس لخالد زواجه بامرأة مالك بن نويرة ليلة قتله ، باعتباره عملا يخالف تقاليد الجاهلية والإسلام .. خطأ من المؤرخين .

وقال بعضهم إن عمر كان يحتفظ لخالد برواسـب قديمة منذ أيام الجاهلية . خطأ آخر من المؤرخين .

إذن .. فما هو السبب ؟

إن عمـر عزل خالد مرتين . عزله أول مرة من القيادة العامة للجيش فى السـنة الثالثة عشـرة هجريـة ، واختار مكانه أبا عبيدة بن الجراح . ثم قـرر عمر عزل خالد نهائيا من الجيش ، أو السلطة ، بعد أربع سنوات .

فى المرة الأولى كان الموقف بسـيطا . لقد انتهت المرحلة الحاسمة فى معركة اليرموك.. وبـدأت مرحلـة أخرى . مرحلة تحتاج إلى كثير مـن المرونة وقليل من الحرب . لهذا كان أبو عبيدة بن الجراح هو الرجل المناسـب للمرحلة الجديدة . إنه سياسـى أولا ، ومحارب ثانيا .. بعكس خالد .

أما فى المرة الثانية فكان الموقف معقدا قليلا . إن عمر عين خالدا أميرا على «قنسرين» بعد فتحها . ولكن عمر علم ذات يوم أن خالدا أعطى لأحد الشعراء مكافأة مالية ضخمة.. فأرسـل عمـر إلى أبى عبيدة بـن الجراح يطلـب التحقيق مع خالد بـن الوليد فى مصدر هـذا المـال . إذا كان خالـد قد صرفه من مالـه الخاص .. فهو مسـرف . وإذا صرفه من مـال المسـلمين .. فهو خائن لأمانة المنصـب العام . وفى الحالتين فـإن خالد معزول من جميع مناصبه.

عنـد هـذا الحد أرسـل عمر بن الخطاب يذيـع فى البلاد : «.. إنـى لم أعزل خالدا عن سـخطة ولا عن خيانـة ، ولكن الناس فتنوا به ، فخشـيت أن يوكلوا إليه ويبتلوا ، وألا يكونوا بعرض فتنة» .

آه .. إذن هذا هو السبب أخيرا ؟

إن عمـر يريـد من الناس أن ترى خالدًا بطـلاً .. وليس معجزة . البطل يمكن تكراره . المعجزة لا يمكن .

وعمـر يـرى أن إعجاب الناس بخالد قد وصل إلى نقطة الخطـر . نقطة الإعتماد عليه والاتـكال علـى ماضيه . وأن خالد فرد . والمجتمعات العظيمـة لا تقدس أفرادا مهما علا شـأنهم . إنها تعشـقهم ، تحبهم ، تعجب بهم ، ولكنها أبدا .. لا تعفيهم من الحساب والمراجعة .

جلالة الملك معاوية : إنها سياسة لكل العصور

- ١ -

القضية هى : من قتل عثمان ؟

- ٢ -

معاويــة بن أبى ســفيان هو مندوب خليفة المســلمين عثمان بن عفــان فى الولاية على الشام . فى الواقع أن معاوية تولى هذا المنصب منذ سنوات طويلة بقرار من عمر بن الخطاب بحكم مكانته وكفاءته .

أما كفاءته ، فقد كان معاوية ذكيا إلى درجة الدهاء .. مناورا إلى درجة الخديعة .. ناعما إلى درجة الالتواء .. مطيعا إلى درجة المالأة .. هادئا إلى درجة التربص .. مرنا إلى درجة التقلب .. طموحا إلى درجة الجشــع .. لماحا إلى درجة اكتشــاف مكان الضعف فى نفوس البشر .. مصانعا إلى درجة المكيدة .. مجاريا لمن فوقه .. متسلطا على من تحته .

هذا إذن رجل سياسة !

- ٣ -

طوال حكم عمر بن الخطاب كان الجهاد كله ضد العدو الخارجى . لهذا برز معاوية ، وأصبحت مزاياه مضافة إلى المسلمين ، بينما عيوبه محسوبة ضد عدو المسلمين .

وشــىء آخر : كان عمر شــديدا فى الحق ، قويا فى الشــخصية ، محاسبا لمرءوسيه ، عادلا مع رعيته. لهذا أبرز له معاوية مزاياه .. وأجل طموحه .

● جريدة «أخبار اليوم» : ١٩٧٥/٩/٢٠ .

ولكن عمر مات .. وجاء بعده عثمان بن عفان خليفة على المسلمين . إن عثمان مؤمن وصادق وطيب ودمث ومتسامح ولين ورقيق .. وفى السبعين من عمره .

وشىء آخر : إن الخليفة الجديد ـ عثمان ـ تربطه بمعاوية علاقة قرابة ومصاهرة .

من هنا نبدأ .

- ٤ -

تولى عثمان منصب الخلافة بعد عمر بن الخطاب بالشورى . تولاه فى سنة ٢٣ هجرية . وخلال سنوات قليلة نشأت قضايا جديدة أصبحت تحتاج إلى أجوبة جديدة . أن الدولة الإسلامية التى كانت ناشئة تتجه إلى التوسع .الآن أصبحت ثابتة تميل إلى الاستقرار . والفتح الإسلامى الذى كان منطلقا بحكم العقيدة .. أصبحت الآن مخاطره أقل ومزاياه أكبر . إننا الآن أمام دولة قوية ، ممتدة ، غنية ، تحولت مشكلتها من الحصول على الثروة إلى كيف توزع الثروة .

عثمان بن عفان يوزع الثروة . لقد اجتهد فأصاب .. واجتهد فأخطأ .

أحد أخطائه أنه لم يضع ضابطا مقنعا متفقا عليه لتوزيع الثروة . مثلا .. مثلا .. منح من خزانة الدولة – بيت المال – ستمائة ألف درهم لأحد الصحابة ، ومائتى ألف لواحد آخر ، وثلاثمائة ألف لواحد ثالث .

كان هذا إساءة للتصرف .. لولا أن الواحد الأخير هو عم الخليفة ـ عثمان بن عفان .

الآن أصبحت الإساءة تمس نزاهة الحكم .

وبدأ الناس يتهامسون ، ولكنهم اكتفوا بذلك .

- ٥ -

لم يكن عثمان بن عفان يعلم ، بعد ، أن مؤرخا إسلاميا سوف يسجل له إنجازاته على النحو التالى : إن عثمان «هو أول من أقطع القطائع ، وأول من حمى الحمى ، وأول من خفض صوته بالتكبير ، وأول من أمر بالآذان يوم الجمعة ، وأول من رزق المؤذنين ، وأول من ارتج عليه فى الخطبة ، وأول من قدم الخطبة فى العيد على الصلاة ، وأول من فوض إلى الناس إخراج زكاتهم ، وأول من ولى الخلافة فى حياة أمه ، وأول من اتخذ صاحب شرطة ، وأول من اتخذ المقصورة فى المسجد خوفا من أن يصيبه ما أصاب عمر ، وأول

من وقع فى عهده الاختلاف بين الأمة .. فخطأ بعضهم بعضا فى زمانه فى أشياء نقموها عليه ، وأول من هاجر إلى الله بأهله ، وأول من جمع الناس على حرف واحد فى القراءة ، وأول منكر ظهر بالمدينة فى عهده .. حين فاضت الدنيا ، وانتهى سمن الناس» .

— ٦ —

الناس فى أى أمة .. يسمعون من الحاكم أشياء كثيرة ، من غير أن يتكلم . إن الحاكم يحتاج إلى معاونين . أنظر إلى المعاونين ، ترى الحاكم . وانظر إلى أساس اختيارهم .. تعرف أساس الحكم .

وقد نظر الناس يوما .. فوجدوا الولايات الأربع الكبرى فى الدولة الإسلامية يتولاها أربعة من أقرباء عثمان .

إنها إذن مسألة ولاء .. قبل الكفاءة .

مرة أخرى : نزاهة الحكم .

حينما فسدت المعايير أمام الناس .. اختلت النزاهة . من الاختلال انقسم الرأى . من الانقسام اضطربت الرؤية . من الإضطراب اهتزت الدولة . من الاهتزاز ولد التمرد .

عثمان بن عفان يواجه التمرد . أحيانا بالتراجع ، فيعزل واليا له ثبتت عليه الخمر . وأحيانا بالنصيحة .

ولكن أهل النصيحة حوله هم أنفسهم محل الشكوى . إنهم محل ثقته هو . ولكنهم محل سخط الناس . لقد استغلوا فيه طيبته وشيخوخته .. فصوروا له الشكوى فى كل مرة على غير ما هى عليه . لقد بدأوا يصنفون له المعارضين لقراراته فى تصنيفات مقررة مقدما : هذا حاسد لك .. وهذا طامع فيك .. وهذا أقل منك .. وهذا متحامل عليك .. وهذا متآمر ضدك .

فى البداية .. لم يكن هناك تآمر .

كانت هناك شكوى . الشكوى اتجهت أولا ضد ولاة عثمان . بعدها اتجهت ضد بطانته . أخيرا اتجهت ضده .

— ٧ —

الناس يسمعون من الحاكم أشياء كثيرة من قبل أن يتكلم .

- ٨ -

عندما لم تذهب عاصمة الدولة إلى المتمردين فى ديارهم تبحث شكواهم .. ذهب المتمردون إلى العاصمة ينقلون تمردهم . إنها سنة ٣٥ هجرية . إن «المدينة» .. وهى عاصمة الدولة الإسلامية .. أصبحت تحت الأحكام العرفية . أحكام فرضها المتمردون القادمون بأسلحتهم من مصر والعراق والكوفة .

عثمان بن عفان يطلب النجدة من ولاته .. الذين هم أيضا أقرباؤه . معاوية بن أبى سفيان والى الشام هو أقوى أقربائه .

لم يحضر أقرباؤه . تصرف سوف يسجله فيما بعد المؤرخ الأجنبى جيبون بقوله : «راح الخليفة الوقور الذى تخلى عنه أولئك الذين استغلوا بساطته ، ينتظر يائسا ... اقتراب موته» .

- ٩ -

التمرد يزداد قوة . الأحكام العرفية تشتد . الأقرباء يتخاذلون . والخليفة - الآن تحت الحصار - لا يجد لغة مشتركة بينه وبين الثائرين . إن الدين لا يردعهم ، لأنهم يتكلمون عن الدنيا . عثمان بن عفان نفسه كان مرحلة انتقالية فى الدولة الإسلامية بين الدين والدنيا .

إنه الآن تحت الحصار - منذ ٢٢ يوما وهو محدد الإقامة . لا تفاهم ، ولا نجدة ، ولا معونة ، ولا ماء ... ولا منطق .

فعندما يضطرب الناس يختفى المنطق . الآن دارت عجلة الثورة المسلحة ضد الخليفة لأول مرة فى الدولة الإسلامية ، ولن يستطيع أحد إيقافها . إن الحصار على منزل الخليفة يشتد ويشتد ويشتد ، ثم ...

- ١٠ -

صحا الناس فجأة على سؤال خطير :

من قتل عثمان ؟

- ١١ -

وقضية أخرى عاجلة : من يحكم .. بعد عثمان ؟

عنـد هذا السـؤال برزت إجابات جديدة . الإجابـة الأولى هى : على بن أبى طالب . إنه ، بحكم فضله وعلمه وإيمانه ومكانته وقرابته من الرسول مرشح للخلافة .

فـى البدايـة رفض على .. فالذين يعرضون عليه الخلافة هـم الذين يحكمون العاصمة بالقوة المسـلحة . والذين يملكون البيعة هم كبـار الصحابة وأهل الرأى . فى النهاية وافق على بن أبى طالب .. وحصل على البيعة .

ولكن المشكلة لها إجابة أخرى : معاوية بن أبى سفيان .

من هذه الإجابة سوف تبدأ المشكلة . أكبر مشكلة واجهتها الدولة الإسلامية .. حتى الآن .

- ١٢ -

كان التناقض بين الشخصين المتنازعين على الخلافة ، هو تناقض لا مكان فيه للحلول الوسط . الصراع على السلطة لا مكان فيه للحلول الوسط .

كان علـى بـن أبى طالب رجلا يعيـش متأخرا عن عصره . إنه يمثـل الدين والضمير والصدق والحق والمبدأ والشـرعية . إن القضايا عنده أهم من الأشخاص ، والدين عنده فوق الدنيا ، والثواب عنده موجود فى الآخرة .

وكان معاوية عكس هذا كله . رجل يمثل الدنيا والقوة والثروة والأمر الواقع . لقد مضت عليه سـنوات طويلة فى موقع حقيقى للسـلطة .. هو الولاية على الشـام . إن وراءه جيشا حقيقيـا ، وفـى جيبه جوائز عاجلة ، وفى يده أموال جاهـزة تعطى لأنصاره الثواب فى الدنيا ، وليس فى الآخرة .

ولأن علـىً بـن أبى طالب أصدق دينا وأقدم جهـادا وأطهر ضميرا وأعدل حكما وأقوى حجـة .. فـإن معاوية فى البداية لم يطرح قضيته الحقيقيـة دفعة واحدة . إن قضيته هى طموحه . وطموحه هو أن يصبح هو نفسه الخليفة الجديد للمسلمين بعد عثمان .

ولكن معاوية رجل سياسة . لهذا اختار قضية أخرى يغلف بها قضيته الحقيقية . إنه قريب لعثمان بن عفان ، وهو ساعده الأيمن فى حياته . لماذا إذن لا يصبح متحدثا باسمه بعد موته ؟

وبدلا من أن يبايع معاوية الخليفة الجديد الشـرعى - علىً بن أبى طالب - فإنه طرح قضية مضادة يعلم مقدما أنها القضية الوحيدة التى تعطيه الشعبية التى يفتقدها .

- ١٣ -

القضيـة هى :

من قتـل عثمـان ؟

- ١٤ -

من هنا بدأت أول حرب أهلية فى تاريخ الإسـلام . إن الخليفة الجديد ـ عليا ـ يريد الاعـتراف بـه أولا .. ويريد أن تصبح لديه قوة فعلية ثانيـا .. ويريد أن يقضى على هذه الحرب الأهلية ثالثا .. ثم يريد أخيرا الحكم فى قضية مقتل عثمان بناء على أدلة حقيقية . إن الجريمة هى القتل ، وهو حد من حدود الله . والجريمة هى قتل الخليفة ، وهو منصب تتركز فيه هيبة الدولة كلها .

ولكن علىً بن أبى طالب يخاطب فى الناس دينهم وضميرهم .

أما معاوية فيخاطب فيهم دنياهم وجيوبهم .

الآن سوف يبدأ كل طرف منهما فى تجميع أنصاره . والآن سوف تنشق الأمة كلها فيما بينهما . إن الفريق الأول يرفع قضية مشـروعة هى شـرعية الخلافة . والفريق الثانى يرفع أيضا قضية مشروعة هى التحقيق فى مقتل عثمان بن عفان .

لم يكن هناك فاصل سوى السيف .. فبدأت الحرب .

- ١٥ -

موقعة الجمـل .

انتصر على بن أبى طالب ضد جزء من المنشقين عليه . ولكنه انتصار حزين . ففى هذه المعركة لم يكن المسـلم يقاتل المسـلم فقط .. ولكن الأخ يقاتل أخته ، والأب يقاتل ابنه ، والخاسر فى النهاية هو طرف غير الطرف الأصلى الذى تدور الحرب تحت شعاره .

ففى ذلك اليوم لم يقتل المسلمون قتلة عثمان .. ولكنهم قتلوا فقط بعضهم البعض .

وظلت القضية قائمة .

- ١٦ -

من قتل عثمان ؟

- ١٧ -

حتى الآن لم تحدث مواجهة مباشرة بين جيش على وجيش معاوية . الجيش الأول مركزه العراق .. والثانى سوريا (يسمونها الشام) . وللمرة الألف فى التاريخ .. يصبح مفتاح الموقف موجودا فى مصر .

لقد فكر معاوية فى الاحتمال الخطر: إن والى مصر يمثل علىّ بن أبى طالب ... واسمه قيس بن سعد . ان مصر توجد غربا ، والعراق شرقا ، وسوريا فى الوسط . إن عليا سوف يسير إلى الشام بجيشه من العراق .. ولو سار قيس هو الآخر بجيشه من مصر .. يقع معاوية بينهما فى كماشة . إذن .. المفتاح الآن هو مصر .

فى البداية حاول معاوية أن يكسب والى مصر إلى صفه . لقد كتب إليه يطلب رأيه فى قضيتين محددتين بالذات . إنه يقول له أولا : «تب إلى الله يا قيس ...».

ويقول له ثانيا : «.. فإذا استطعت يا قيس أن تكون ممن يطالبون بدم عثمان ، فافعل ، وتابعنا على أمرنا .. ولك سلطان العراقين إذا ظهرت ما بقيت ، ولن أحببت من أهلك سلطان الحجاز ما دام لى سلطان ، وسلنى ما شئت فإنى أعطيك ، واكتب لى برأيك» .

ودهش قيس من الخطاب . إن معاوية يرشوه . والرشوة التى يعرضها هى حكم العراق مدى الحياة وحكم الحجاز لأقربائه .. مقابل .. مقابل ماذا ؟

مقابل التضامن مع معاوية فى صراعه على السلطة . وقيس لا يقل عن معاوية ذكاء . وهو يعلم جيدا أن السلطة – وليست جريمة قتل عثمان بن عفان – هى طموحه الأكبر . ولكن .. إذا كان معاوية يستطيع أن يكون ملتويا مرة .. فإن قيسا يستطيع أن يكون ملتويا مرتين .

- ١٨ -

فى دمشق ، قرأ معاوية خطاب قيس بن سعد من مصر .. فإذا به يقرأ : لا شىء . إن قيسًا ليس ضده ، ولكنه أيضا ، ليس معه . هذا هو كل شىء !

وأعاد معاوية الكتابة إلى قيس ، مهددا ومتوعدا وطالبا موقفا محددا .

وأخيرا .. جاء الموقف المحدد : إن قيسا يرفض التنكر لشرعية على بن أبى طالب .

وعلى الفور تحرك معاوية فى اتجاهين . فأولا : أشاع فى الناس أن قيسا قد انضم إليه ، وقد وصل حالا خطاب منه بذلك .

وثانيا : طلب من تابعيه فى العراق أن يشيعوا ذلك حتى يفقد الخليفة ثقته فى واليه بمصر .

والنتيجة : قرر على بن أبى طالب عزل واليه بمصر !

وسوف تمر شهور طويلة ، قبل أن يكتشف على بن أبى طالب براءة قيس . لكن .. ساعتها يكون الوقت قد فات !

- ١٩ -

الحلفاء يتجمعون . الجيوش تتحرك ـ من سوريا غربا ، ومن العراق شرقا ـ والقضية هى :

من قتل عثمان ؟

- ٢٠ -

فى الحياة العادية نستطيع أن نحكم على الإنسان بنوع أصدقائه .

وفى السياسة نستطيع أن نحكم على السياسى بنوع حلفائه ومعاونيه . ولأن على بن أبى طالب واضح .. فإنه يخاطب فى الناس ضميرهم ، ويحدثهم عن نصرة الدين ، ويعدهم بالثواب فى الآخرة .

ومعاوية بن أبى سفيان هو الآخر واضح . إنه للمرة المائة يخاطب فى الناس جيوبهم ، ويحثهم على نصرته هو شخصيا ، ويعدهم بالثواب فى هذه الدنيا .. الآن .. ونقدا . إنه ينمى فى الناس أطماعهم ، ويتحدث معهم بمنطق المصلحة المشتركة ، ويعدهم باقتسام الغنائم ، ويضع تحت تصرفهم عينة من الرشوة .. وعربونا للتحالف .

هذه بروفة مبكرة لماكيافيللى حيث الغاية تبرر الوسيلة . هذه أيضا بروفة مبكرة لنوع من الحكام السياسيين سوف يتكرر ظهوره كثيرا فى التاريخ العربى . سياسيون يرفعون أقدس الشعارات . بينما تحركهم أسوأ الدوافع ، ويجمعون حولهم أسوأ بطانة .

إن معاوية هو إذن رجل لكل العصور . أو حاكم لكل العصور . إنه يمثل قوة العقل البشرى .. بمثل ما يمثل ضعف المشاعر الإنسانية . إن المشاعر الإنسانية والدوافع البشرية

هى من النوع المعقد جدا ، بحيث لا يمكن تفسيرها أحيانا بالمنطق ، ولكن يمكن تفسيرها غالبا بالمصلحة . معاوية يؤمن بالمصلحة . إن الغاية عنده تبرر الوسيلة ، والولاء لشخصه أهم من الولاء لمبدأ . إنه سوف يجرب كل وسيلة فى الحصول على هذا الولاء .. الإقناع والإرهاب والأطماع والرشوة والخديعة وكل شىء .. كل شىء .

نحن هنا أمام نموذج بشرى لرجل سياسة .. بعد أن كنا - أيام عمر بن الخطاب - أمام نموذج بشرى لرجل دولة . عمر كان يبنى المواطن أولا .. ولكن معاوية يبنى السلطة . وكان عمر يحاول أن يجعل الناس أفضل مما هم عليه . ولكن معاوية ليست لديه مثل هذه الرغبة . معاوية رجل عملى . لقد ورث عن أبيه قوته وقسوته وكيده ودهاءه ومرونته . وكسب من عصره إغراء الدنيا وطمع السلطة . وكسب من أحلامه هو شيئا أهم : عبادة السلطة .

لقد أصبحت السلطة بالنسبة له هى الهدف ، والحصول عليها هو الغاية ، والاستمرار فيها هو الجائزة . إننا من الآن فصاعدا لن نرى حوله - داخل السلطة - سوى إناس من نفس عقليته وتفكيره . إنه أمام الناس يرفع الشعار الذى لا يستطيع أحد أن يعارضه . شعار : الانتقام من الذين قتلوا عثمان بن عفان . ولكنه أمام معاونيه يطرح المصلحة التى لا يستطيعون مقاومة إغرائها . إن الذين غشهم الشعار فيه بدأوا ينفضون .. والآن لن يبق سوى الذين تشدهم إليه المصلحة .

إن عمرو بن العاص ، مثلا ، الذى كان عثمان بن عفان قد عزله من ولاية مصر فى حياته .. يطلب من ولديه - فى حوار عائلى - أن يشيرا عليه .. لمن ينضم : لعلى بن أبى طالب .. أو لمعاوية بن أبى سفيان ؟

- ٢١ -

دمشق . معاوية يتفاوض مع عمرو بن العاص : ما هو ثمن انضمامك إلى ؟

عمرو يرد على معاوية فى إيجاز وحسم : والله يا معاوية أنت لا تقاتل عليا ولا علىّ يقاتلك تنافسا على دخول الجنة .. إنكما تتقاتلان على الدنيا .. فأطعمنا مما تأكل لكى نناضل عنك نضال من يريد الأكل !

هذه لغة يعرفها معاوية ، وصراحة يريدها ، واختصار يحبه . إذن : فلتكن العودة إلى ولاية مصر هى نصيب عمرو بن العاص من الأكل !

- ٢٢ -

ذى الحجة . موقعة صفين . سنة ٣٦ هجرية .

الجيشان يتقاتلان بغير نتيجة . أخيرا يهجم على .. ويتراجع معاوية . وعندما تشاور معاوية مع عمرو بن العاص نصحه بالاحتكام إلى المصحف .

رفعت المصاحف . تمت الهدنة . التحكيم بعد الهدنة . الفريق الأول اختار أبا موسى الأشعرى ، والفريق الثانى اختار عمرو بن العاص .

بعد ستة أشهر اجتمع الحكمان ليتفقا على حل ينقذ الأمة من الحرب الأهلية . أخيرا اتفقا : يتم الإعلان عن خلع الاثنين المختلفين - على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان - وتعود الشورى إلى الأمة لاختيار من تراه لتولى منصب الخليفة .

وخرج الاثنان على الناس يعلنان قرارهما . أما عمرو بن العاص فقد طلب من أبى موسى التحدث أولا .

وتكلم أبو موسى . ثم تكلم عمرو بن العاص ، فقال : أما صاحبكم فقد خلع صاحبه .. أما أنا فأخلع أيضا صاحبه ، وأثبت صاحبى !

وهاج فريق على بن أبى طالب . إن هذا غش .. واحتيال .. وخداع .

و ... سياسة !

- ٢٣ -

من قتل عثمان ؟

- ٢٤ -

من عاصمته - دمشق - يعلم معاوية أن أتباع على فى العراق منقسمون على أنفسهم .. منهم من خرج عليه .. ومنهم من انشق ضده .

هنا يقرر معاوية شن حرب عصابات ضد أطراف المناطق الموالية لعلى فى العراق . ومن الآن فصاعدا سوف يضطر على إلى خوض معارك دفاعية ليس فيها انتصار واحد ، ولكن فيها هزائم متتابعة .

شىء آخر يعلمه معاوية : إن عليا قد عين مندوبا جديدا اسمه «الأشتر» ليصبح واليا له على مصر . إن معاوية يعرف «الأشتر» جيدا . يعرف أن كفاءته ، زائد موارد مصر ،

سوف تكونان عونا ضخما لعلى . ويعرف أن فى الطريق إلى مصر واحة محددة يجب أن يبيت فيها «الأشتر» ليلة واحدة أو ليلتين .

وعلى الفور اتخذ معاوية قرارين : أولا ـ رسالة سرية منه إلى زعيم القبيلة المقيمة فى الواحة ، يطلب منه معاوية فيها مهمة محددة ، ويعفيه فى مقابلها من دفع الضرائب مدى الحياة .

ثانيا – خرج معاوية إلى الناس يخبرهم بتوجه «الأشتر» إلى مصر .. ويطلب منهم مشاركته فى الدعاء عليه فى صلاتهم كل يوم .

بعد أيام قليلة جاء الخبر : مات «الأشتر» .

إن الناس وقتها لم تعرف أنه مات مسموما . لقد عرفوا فقط أن معاوية مستجاب الدعاء عند الله .. وصاحب كرامات .. وربما من أولياء الله الصالحين .

– ٢٥ –

قتل على بن أبى طالب .

– ٢٦ –

فجأة تغير كل شىء : فالذين خذلوا عليا فى حياته ورفضوا الخروج إليه فى حرب أخيرة ، أصبحوا الآن يبايعون ابنه الحسن ، ويطلبون منه الخروج إلى الحرب ضد معاوية .

أخيرا ، تمت المفاوضات . فى هذه المرة أعطى معاوية للحسن كل ما يريد .

– ٢٧ –

معاوية بن أبى سفيان يحمل لقب الخلافة رسميا لأول مرة ، ويقف فى الكوفة ، والحسن يخطب بجانبه : أيها الناس .. إن أكيس الكيس التقى وأحمق الحمق الفجور . ان هذا الأمر الذى سلمته لمعاوية .. إما أن يكون حق رجل كان أحق به منى فأخذ حقه .. وإما أن يكون حقى فتركته لصلاح أمة محمد وحقن دمائها . فالحمد لله الذى أكرم بنا أولكم ، وحقن دماء آخركم .

كلمات قالها الحسن ، ثم انصرف إلى الحجاز ، مقيما فى المدينة .

- ٢٨ -

لم تحقـن الدماء . فمعاوية يعلن للناس فى الكوفة : انتهى وقت الوعود .. وجاء وقت الشدة .

- ٢٩ -

سنة ٥٠ هـ . الحسن يموت مسموما .

البعـض يقـول إنها ليسـت قضية سياسـية . الأغلبية تؤكد أن معاويـة هو الذى دبر تسميمه .

- ٣٠ -

دمشق . إنها سنة ٥٦ هـ . ومعاوية يقيم حفلا لمبايعة ابنه يزيد للخلافة من بعده .

وخلاصة الحفل يبلورها أحد المبايعين بنهوضه رافعا سـيفه معلنا على الجميع : أمير المؤمنين هو هذا (وأشـار إلى معاوية) .. فإن هلك فهذا (وأشـار إلى يزيد) .. فمن أبى فهذا (وأشار إلى سيفه) .

- ٣١ -

نحـن الآن أمام كل الملامح السياسـية لحكم معاويـة . إن الخلافة الآن فى يده . وهى وراثية فى أسرته من بعده . إنها خلافة نشأت ، وتستمر ، بحق القوة المسلحة . من قبل هذا فأهلا به وهو آمن على نفسه وماله وعياله . من اختلف ، فلرقبته السيف .

هذه إذن بذرة الاستبداد السياسى الذى سيشل عقول المسلمين لألف سنة بعدها . فتحت شعار «وحدة الكلمة» سوف يصادر السلطان كل كلمة . وتحت شعار «حماية الإسلام» سوف يحمى السـلطان نفسـه ، ويصادر عقول المسلمين ، ويقطع ألسنتهم . فى الواقع أن معاوية نفسـه قد لخص سياسـته كلها بقوله : «إنى لا أحول بين الناس وبين ألسـنتهم .. مالم يحولوا بيننا وبين سلطاننا» .

إنها إذن مسـألة سلطة ، وعبادة سلطة . يستطيع الناس أن يتكلموا ويناقشوا ويختلفوا ويجتهـدوا ويعترضـوا .. إلا فى السياسـة . من أجل هذا سـوف ينهـض العرب فى كل العلوم ، وسوف ينطلق تفكيرهم فى كل مجال ، إلا فى البحوث السياسية .

من أجل هذا سوف يسقط طاغية ، ليرتفع طاغية . لا أحد يعرف لماذا اختفى من سقط .. ولا لماذا استمر من ارتفع . إن الكارثة هى نفسها فى كل مرة ، ومع ذلك فالسبب واحد فى كل مرة . السبب هو أن المسلمين أصبحوا ـ من الناحية السياسية ـ قوما فاقدى الذاكرة !

إنهم يكتبون تاريخهم السياسى على استحياء شديد . ويدورون حول كل مفاسد السلطة فى تردد كامل . فلأن كل سلطان يحصل فى عصره على منتهى التصفيق .. يصبح من الحرج الشديد بعد ذهابه أن يلاقى أى قدر من الحساب . وحتى حينما يحدث حساب .. فإنه يحدث بعد أن يمضى الشهود الحقيقيون ، وبروح من التردد والحياء ، وبهدف استغفار الله له ولقومه من بعده . إن الحاكم لم يكن ظالما لأنه أراد الظلم ، ولكن لأن الظروف دفعته إلى ذلك دفعا . أو ـ إذا لم تكن حجة الظروف مقنعة ـ فليكن أعوانه هم الذين ظلموا الناس بغير علمه . أو .. أو .. أو ..

المهم .. إن كل حاكم جديد يبدأ سلطته وهو لا يعرف على وجه الدقة أساس سلطته ولا قواعد مراجعته . إن الأمة لم تحدد له بوضوح : ما الذى ستتسامح فيه ، وما الذى لن تغفره له .

الأمة لم تفعل ذلك لأنها هى نفسها لا تعرف . وهى لا تعرف لأنها لا تدرس . وهى لا تدرس لأنها لا تناقش تاريخها على أساس من العقل . إن المؤرخين الإسلاميين غالبا لم يتركوا لنا تاريخا .. ولكنهم كتبوا لنا تقاريرا عاطفية . تقارير أساسها الحب والكراهية . فى الكراهية نحن نلعن بلا حيثيات . وفى الحب نحن نقدم للحكام شهادات بحسن السير والسلوك .. وبغير أدلة .

من وقت معاوية بدأت الأدلة .

فنتيجة لاختلاط الدين بالسياسة ، لم يعرف المسلمون على وجه الدقة : أين تنتهى مهمة الخليفة دينيا فيحاسبه الله .. وأين تبدأ وظيفته سياسيا فيحاسبه الناس .

معاوية رفض أن يحاسبه الناس . إنه وصل إلى الحكم بمذبحة ، واستمر فيه عشرين سنة بمذبحة ، وسوف يضيع الحكم من أسرته بمذبحة . وفيما بين المذبحة ، والمذبحة المضادة .. فيما بين الأمويين والعباسيين .. سوف يضيع من المسلمين نصف تاريخهم السياسى .

- ٣٢ -

معاوية رجل سياسى .

لقد انتهى من الحصول على البيعة لابنه فى دمشق .. ورتب بالسيف إزالة متاعبه فى مكة والمدينة .. وعاد إلى دمشق .

فى دمشق دخل إليه سعد بن أبى وقاص - الصحابى الجليل - محييا .

قال سعد : السلام عليك أيها الملك ..

ضحك معاوية وقال : ما كان عليك يا أبا اسحاق رحمك الله لو قلت لى .. يا أمير المؤمنين ؟

رد سعد فى مرارة : هل أنت تقولها ضاحكا ؟ والله ما أحب لنفسى أن أتولاها ، بالطريقة التى توليتها أنت .

- ٣٣ -

سنة ٦٠ هـ .

مات معاوية . عند موته كان قد نسى أشياء كثيرة . نسى مثلا أنه .. أنه .. أنه ..

- ٣٤ -

من .. قتل عثمان ؟